

من البتاريخ

« ٣ »

بعض مؤرخي الإسلام

تأليف

علي أدهم

مكتبة المطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفيحة

١٨ شارع كامل مدق

مقدمة

فصول هذا الكتاب تتناول مؤرخين عاشوا وكتبوا في ظلال الحضارة الإسلامية ، وقد قرأت لهم ، وأنست بقريرهم ، واستروحت إلى أحاديثهم ، وطالت صحبتي لهم على تباعد أوطانهم وتفاوت عصورهم واختلاف مذاهبهم . وقد تعودت أن أقرأ للبتة وحب الاستطلاع قبل أن أقرأ للبحث والدراسة والتاس الفوائد ، فإذا استماني كاتب أو شاعر أو مؤرخ أو فيلسوف وتعمت بصحبته أقبلت عليه ، وعملت على قراءة كل ما تيسر لي الحصول عليه من مؤلفاته وآثار قلبه ، وأتعت ذلك بمحاولة قراءة ما كتبه عنه نقاده ودارسو أدبه ، سواء من أنصفه منهم ووفاه حقه أو من غطاه وجار عليه ، لأزداد به معرفة وله تقدير ، وقد سرت على هذه الحطة منذ أول عهدي بالقراءة والاطلاع ، ولم أر بعد طول التجربة ما يدعو إلى تغييرها والعدول عنها .

ولم أقصد بفصول هذا الكتاب إلى البحث المستفيض والاستقصاء المستوعب ، وملاك الأمر أني أنفقت ساعات ممتعة مع هؤلاء المؤرخين ، وقد دفعني ذلك إلى أن أعرف أشياء عن مؤلفاتهم ونشأتهم وملابسات حياتهم ، وأن أسجل ذلك في الكتابة عنهم والتعريج على ذكراهم . والحق أقول إنني راقتني محاسنهم ومزاياهم ، ولم يفض من إعجابي بهم ، وتقديرى لهم ، مانيتنته في كتبهم من وجوه النقص ودواعي القصور . وذلك لأنني أعرف صعوبة الكتابة التاريخية ، وحاجتها إلى المواهب المتعددة ، والمزايا النادرة ، والمؤرخ المثالي يجمع بين دقة ملاحظة العالم ونزاهته ، وبداهة الفنان وألمعيته ، وزكاة الفيلسوف وبعد غوره ، ولذلك لم يظهر كبار المؤرخين في مختلف الحضارات إلا في أوقات النضج والاكتمال . وليست القدرة على كتابة التاريخ من الهبات التي تجود بها الطبيعة في يسر وإسماح ، وإنما هي ثمرة من ثمرات الثقافة المستمكنة الأصيلة . وقد يبدو أنه من السهل اليسير (م - ١ - بعض مؤرخي الإسلام)

أن ينظر الإنسان إلى الحقيقة التاريخية نظرة طبيعية ، وأن مجرد المشاهدة كافية للقدرة على تسجيلها وإثباتها ، ولكن الأمر على تقيض ذلك ، لأن صدق الرؤية والقدرة على وصفها يتطلبان انطلاقاً من أسر الخيالات والأوهام والخرافات ، ومعرفة بقوانين الطبيعة وطبائع البشر ، وسعة في النظر وأناة في إصدار الأحكام لا توجد عند الأمم البدائية ولا في فجر الحضارة ، وما هو جدير بالملاحظة أن ظهور هومر في الحضارة اليونانية سبق ظهور المؤرخ هيرودت بقرون عدة ، وفي تاريخ الأدب الإيطالي نرى ظهور الشاعر دانتى قد تقدم ظهور المؤرخين مكياڤلي وجويكشارديني ، وفي تاريخ الأدب الإنجليزي أظهر شكسبير براعة لا نظير لها في تصوير الأخلاق والمواقف ، وقد ظل المؤرخون الإنجليز يتعثرون في كتابة التاريخ حتى عهد شارل (١) الثاني ، وبعض الأمم القديمة وصلت إلى مستوى عال من الحضارة وقصرت مع ذلك في فن كتابة التاريخ .

وقد تكبر في عيوننا عيوب مؤرخي الإسلام إذا عقدنا الموازنة بينهم وبين كبار مؤرخي الغرب في القرن التاسع عشر — وهو قرن ازدهار فن كتابة التاريخ في رأى الكثيرين من الثقات العارفين — وذكرنا أسماءهم إلى جانب أسماء أمثال كارلايل وماكولى وفرود عند الإنجليز ، ورينان وتين وميشليه وأضراهم عند الفرنسيين ، ومومسن وفون رانك وترينتشك عند الألمان ، وربما أغرانا ذلك بانتقاصهم ، والنيل منهم ، وتهوين أمرهم ، ولكننا نسئ إليهم ولا نجعل في هذه الموازنة ، وليس من الإنصاف أن نطلب من المؤرخ أو غير المؤرخ أن يحلق فوق مستوى عصره ، ويعين في الابتعاد عن آفاق زمنه ، والكثيرون من مؤرخي الإسلام قد استوعبوا معلومات عصرهم ومعارفه ، ومثلوا ثقافته أحسن تمثيل .

وبعض فصول هذا الكتاب كنت أعددتها للإذاعة حينما عهد إلى في الحديث عن عيون كتب الأدب العربى ، وبعضها نشر فصولاً متفرقة في مجلة الثقافة ، ولكنى حينما بدا لى جمعها بين دفتى كتاب أعدت النظر فيها وزدتها بسطة وتنقيحاً

(١) أحد ملوك بريطانيا من أسرة إستيوارت ولّى الملك من سنة ١٦٦٠ إلى سنة ١٦٨٥ ميلادية .

ومراجعة وتحقيقاً ، وأضفت إليها بعض ما استجد لى من المعلومات ، وجمال بنفسى
من الأفكار .

ويبدو لى — إذا لم أكن قد أخطأت فى الملاحظة — أن الجيل الناشئ قليل
العناية بالتراث الأدبى القديم ، فإهد فى معرفة أمثال هؤلاء المؤرخين ، ولست
بسيطيل تحليل الأسباب التى دعت إلى ذلك ، فإذا وفقت هذه الفصول فى توجيه
جانب من عنايته إل هذه الكنوز الثمينة والموارد العذبة فإنها تكون قد حققت
لحدى الغايات الهامة التى قصدتها من وراء جمعها فى هذا الكتاب .

مؤرخو الطليعة

يشعر الناس بأنهم يقضون حياتهم في الدنيا بين أديتين ، وهما أبدية الماضي وأبدية المستقبل ، ولذا لا يكتفون عن التلفت إلى الماضي ، ولا يسأمون التطلع إلى المستقبل ، وكل إنسان إلى حد ما مؤرخ يحتفظ في ذاكرته بطوائف من الذكريات السارة والمحنة ، وما ينفك ينشر صحائفها ويطويها حتى يصبح هو نفسه ذكرى من الذكريات ، وصدى من أصداء السنين الخالية ، والتاريخ للأمم بمثابة الذاكرة للفرد ، وكل أمة مهما كانت متخلفة في مضمار الحضارة لها نصيبها المقسوم من الذكريات الحلوة والمرّة ، وهذا النصيب المقسوم هو ما يسمى تاريخها ، وحينما انبثقت أنوار الإسلام في شبه الجزيرة العربية كان للعرب نصيبهم المقسوم من الأخبار التاريخية التي تختلط فيها الحقائق بالأساطير اختلاطاً يجعل التمييز بينهما من أشق الأمور لعدم وجود مدونات يرجع إليها عند المقابلة والتحصيل والوزن والتحقيق ، وكان أكثر هذه الأخبار يدور حول ما يسمى « أيام العرب » ، وحروبهم قبل الإسلام ، وأنسابهم ، وأخبار بعض القبائل البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس ، وشذرات عما سمعوه من أخبار التوراة والتلويذ . ولم يكن العرب في الجاهلية أمة بدائية كما قد يتبادر إلى الذهن ، وقد كان العصر الجاهلي فترة طويلة الأمد بين حضارات العرب القديمة في البين وبتراء وتدمير والحيرة وبين الحضارة الإسلامية ، ولم تكن الكتابة في العصر الجاهلي واسعة الانتشار ، ولكتبتها مع ذلك لم تكن مجهولة ، بل كانت شائعة الاستعمال في كتابة العهود والمواثيق والصكوك والرسائل ، ولكن العقلية الجاهلية كانت أقدر على قرض الشعر منها على معالجة كتابة التاريخ ، كانت عقلية شديدة التعصب للقبيلة نزاعة إلى الأسطورة والحرافة ، قليلة الصبر على المراجعة والتحقيق ، متشعبة بروح عصرها وتقاليده ، معترزة بعروبيتها ، محتقرة لغيرها من الأمم ، وهذه الحالة لا تعوق قرض الشعر ،

بل قد تكون من بواعث نظمه ، لأن فيها ما يثير الخيال ، ويحرك العاطفة ،
ولسكنها عقبة في طريق الفضح الذي تستلزمه كتابة التاريخ .

ولما ظهر الإسلام شغل المسلمون بالفتوح والحروب والغزوات حتى توطدت
مكانة الإسلام ، ورسست قواعده ، وعلت كلبته ، واستوسق له الأمر ، ولما هدأت
فورة الفتوح ، وحدث نوع من الاستقرار النسبي ، بدأ المسلمون يتجهون إلى إثبات
الأخبار وتسجيل الحوادث ، وأقبلوا على جمع الأحاديث النبوية وتفسير القرآن .

وقد نشأ التاريخ الإسلامى نشوؤاً طبيعياً استجابة لحاجة المجتمع الإسلامى .
والظاهر أن مؤرخى العرب لم يعرفوا كتب التاريخ اليونانية أو الرومانية ، لأن
تشيئاً منها لم يترجم إلى اللغة العربية ، ولذا نشأ التاريخ الإسلامى على غير مثال
سابق ، وكشف عن خصائص الأمة الإسلامية ، وأغلب مؤرخى المسلمين لم يكونوا
من المؤرخين الرسميين الذى تكلفهم الدولة الرجوع إلى الوثائق ، وجمع الأسانيد ،
وكتابة التاريخ ، وإنما كانوا يتقدمون بمؤلفاتهم التاريخية إلى المجتمع الإسلامى
برمته ، ولا يعيشتون في كنف الأمراء ، ولا يعتمدون على معونة الدولة ، ولم تخل
كتابتهم بطبيعة الحال من التأثير ببيتهم ، ونزعتهم المذهبية ، وعقيلتهم السياسية ،
ولكن حظهم من النزاهة كان موفوراً إلى حد كبير ، فهم لم يكتبوا التاريخ إرضاء
للخلفاء والأمراء ، وإنما كتبوه بدافع من ميلهم إلى البحوث التاريخية ، وخدمة
للمجتمع الإسلامى بوجه عام .

وفى أول الأمر كان التاريخ يمزج برواية الحديث وتفسير القرآن ، وذلك
لأن المسلمين لما اشتغلوا بجمع القرآن وتفسيره واستقصاء الأحاديث احتاجوا إلى
تحقيق المناسبات التى نزلت فيها الآيات ، والمشاهد التى وردت فيها الأحاديث ،
ولذا عمدوا إلى جمع أخبار السيرة النبوية قبل كل شئ ، وقد حوى القرآن الشرائع
والأحكام والأخبار ، وكان هم المسلمين تلاوته ، وفهم أحكامه ، لأنه قاعدة الدنيا
والدين ، وفيه نهج الحياة السليمة فى الدنيا والإعداد للحياة الباقية فى الآخرة ، وفيه

الأحكام التي تؤيد السلطة وتشد أزر الخلافة ، وقد أشكل عليهم فهم بعض أحكامه ، وتفسير بعض معانيه ، فعمدوا إلى الأحاديث المأثورة ليستعينوا بها على توضيح المشكل ، وصار همهم جمع الأحاديث بمن سمعها أو رواها عن أحد سامعيها بالإسناد المسلسل ، وقد وجدوا تبايونا ولونا من ألوان التناقض في الروايات فبدلوا جهداً في التفريق بين الصحيح والزائف ، وقد جرم ذلك إلى درس طبقات المحدثين والأحوال التي تناولوا فيها الأحاديث .

وفي القرآن إشارات إلى الأمم الخالية ، والقبائل البائدة ، والأنبياء السابقين ، ولذلك حرص المسلمون على فهم هذه الإشارات وتوضيح مدلولها ، وكان الإسلام قد أظل الكشيرين من اليهود والنصارى ، فاستعان بهم المسلمون على توضيح هذه الإشارات ، وحدثهم هؤلاء عن أصول هذه الإشارات في التوراة والتلود ، فضم المسلمون هذه الأخبار إلى التفسير والتاريخ ، وقد اشتهرت باسم الإسرائيلية ، وكان في طليعة من لهم أثر بارز في ذلك كعب الأخبار المتوفى سنة ٣٤ هجرية ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ هجرية .

ومن العوامل التي ساعدت على تنشيط الحركة التاريخية النظام المالي في الحكومة الإسلامية ، لأن الخراج الذي كانت تؤديه البلاد التي فتحها المسلمون كان يختلف حسب فتحها صلحا أو عنوة أو بعهد ، وتبعاً للأحداث السياسية والاجتماعية التي حدثت في أثناء الفتح ، ولذلك كان الأمر يقتضى بحث تاريخ الفتح ، وكان نظام العطاء كذلك يستلزم معرفة الأنساب والسوابق في الدفاع عن الإسلام مردعوته .

وقد أثارت هذه العوامل مجتمعة الوعي التاريخي عند المسلمين ، وأدت إلى تكاثر أخبار التاريخية ، وبدأ تدوين بعض هذه الأخبار المتناثرة الدائرة على أنواع واة في رسائل موجزة ، وفي نطاق جد محدود في عهد معاوية ، ولا يعرف على وجه التحقيق مؤلف أول كتاب أو كتيب في التاريخ الإسلامي ، ويتنازع فضل

الأسبقية في هذا المضمار أربعة رجال وهم زياد بن أبيه ، فقد نسبوا إليه كتابا ألفه في مثالب العرب ، وإذا صححت نسبة هذا الكتاب إليه فأغلب الظن أنه ألفه بعد مسألة استلحاق معاوية لإياه ، فقد أثار هذا الاستلحاق ضجة في العالم الإسلامي ، ولم يخف بعض الشعراء سخريتهم بهزلته ، ومن المحتمل أن يبعث ذلك زياداً على تأليف هذا الكتاب ليكون سلاحاً يرد به التهجم على نسبه ، ومهما يكن من الأمر فإن هذا الكتاب من الكتب المفقودة ، وقد توفي زياد سنة ٥٣ هجرية .

ودغفل النسابة يعزى إليه تأليف كتاب التظافر والتناصر ، وهو كتاب أسرار شائقة وأحاديث طلية ويحوم الشك حول حقيقة تأليف هذا الكتاب ، وإذا صح وجوده فهو من قبيل كتب الأسماء والنوادر وليس من كتب التاريخ الخالص والأخبار الموثوق بصحتها .

ونسب بعض الرواة مدونات إلى عبد الله بن عباس ، ولا يذكرون أنه أطلق عليها اسماً خاصاً ، والأرجح أنها كانت تتضمن بعض ما كان يقوله في مجالسه التي كان يفسر فيها القرآن .

ورابع هؤلاء الرجال عبيد بن شربة المتوفى سنة ٧٠ هجرية ، وقد اتخذ معاوية اسميراً ومحدثاً يروى له طرائف الأخبار وغرائب الأحاديث ، وقد دونت أحاديثه في كتاب عنوانه « كتاب الملوك وأخبار الماضين » ، وكتابه أقرب إلى كتب المسامرات منه إلى كتب التاريخ ، وأمر هذا الكتاب لا يخلو من الشك ، بل قد تناول الشك وجود مؤلفه نفسه .

وواضح أن هذه الكتب التي تستبق الأولوية في كتابة التاريخ تغلب عليها صفة كتب السمر والأحاديث والنوادر ، وقد ظهرت بعدها كتب السير والمغازي ، وهي أقرب إلى كتب التاريخ الصحيح من الكتب السابقة ، لأنها كانت تعتمد على الأحاديث المروية عن النبي والتي يتحرى في جمعها الصحة وتلتزم الدقة ، وكان لذلك فضل كبير في رفع مستوى الكتابة التاريخية والاتجاه

مها إلى الطريق السوى ، وقد كان لهذا الاتصال بين رواية الأحاديث وكتابة التاريخ تأثير بالغ في الطريقة التي سار عليها مؤرخو الإسلام في كتابة التاريخ .

والمعروف أن أول من عرف بالتأليف في المغازي هو أبان بن عثمان بن عفان الذي توفي سنة ١٠٥ أو قبلها (١) ، وكان أبان من علماء الحديث والفقه ، وقد اشترك في خروج عائشة وطلحة والزبير للطلب بثأر عثمان ، وشهد واقعة الجمل ، وقد عينه عبد الملك بن مروان والياً على المدينة سنة ٧٥ هجرية ، وسبب ذلك أن والي السابق خرج وافداً على الخليفة بغير إذن منه قبل خروجه واستخلف أباناً على المدينة ، فغضب عليه عبد الملك ، وصرفه وأقر أباناً ، واستمر أبان في ولايته على المدينة سبع سنوات ، وقد عزله عبد الملك سنة ٨٣ هجرية .

والمرجع الذي يعتمد عليه القائلون بأن أباناً هو أول من ألف في المغازي هو رواية ابن سعد صاحب الطبقات في حديثه عن المغيرة بن عبد الرحمن وهي قوله (١) : « وكان ثقة قليل الحديث الا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذها من أبان بن عثمان ، فكان كثيراً ما يقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها ، والظاهر أن هذه المغازي التي رواها المغيرة عن أبان لم تكن كتاباً بالمعنى الدقيق للكلمة ، وإنما كانت مجموعة من الأخبار حول حياة النبي .

ومن عاصروا أباناً وألفوا في التاريخ عروة بن الزبير ، وقد ولد سنة اثنتين وعشرين وقليل ست وعشرين للهجرة ، وكان عروة يعد أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وأبوه الزبير بن العوام أحد الصحابة العشرة المقدمين ، وهو ابن صفية عمه النبي ، وأم عروة المذكور أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين ، وهو شقيق

(١) تختلف الروايات في تاريخ ولادته في بعضها أنه توفي في عهد الوليد الأول (٨٦/٩٦ هجرية) وفي رواية أخرى أنه مات في عهد يزيد الثاني (١٠١ — ١٠٥ هجرية) ويذهب البعض إلى أنها في نهاية عهد يزيد الثاني أي سنة ١٠٥ هجرية .

(٢) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٥٦ .

عبد الله بن الزبير بخلاف أخيهما مصعب فإنه لم يكن من أمهما ، وقد روى عروة عن عائشة أم المؤمنين ، وكان عروة رجلاً معروفاً بالصلاح والتقوى والعلم ، وقد مكنته إقامته في المدينة من الإلمام بكثير من الأخبار عن أولية الاسلام ، وقد عرف بعضها من والده ومن أمه ، وعرف من عائشة أكثر من غيرها ، وكان لا يقطع زيارتها وسؤالها ، ولم يكتف عروة بتلقي تلاميذه الأخبار التي نقلها عن الثقات الذين أخذ عنهم بل دون ما انتهى إلى علمه عن حوادث صدر الإسلام في رسائل اعتمد عليها ابن إسحاق والواقدي والطبري ، وقد لوحظ أن عروة في كتاباته لا يهمل الإسناد إهمالاً تاماً ، ولا يعنى به كذلك عناية شديدة .

وقد أصابته الأكلة في رجله وهو بالشام عند الوليد بن عبد الملك ، فقطعت رجله بالمنشار وهو شيخ كبير ، وقد أظهر جلدًا عجيباً وقوة احتمال نادرة ، ولم يقبل أن يسقى الخمر ليستعين بها على احتمال الألم . وقد توفر عروة على دراسة الأثر والعناية بالأمور الدينية ، وابتعد عن السياسة والأمور الدنيوية ، ولهذا اتصل بالأمويين بالرغم مما كان بينهم وبين أخيه عبدالله من منافسة على الخلافة انتهت بقتل عبد الله وأخيه مصعب قبله ، وقد حاز عروة إعجاب عبد الملك ، وظفر بتقديره حتى قال فيه عبد الملك : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فليُنظر إلى عروة بن الزبير ، (١) . وقد توفي عروة سنة ٩٣ هجرية وقيل سنة ٩٤ .

ومن أشهر من عرف بكثرة المعلومات التاريخية وكان من السابقين إلى رواية أخبار السيرة والمغازي وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٤ هجرية ، والمعروف عن وهب أنه كانت له معرفة واسعة بأخبار الأوائل وأحوال الأنبياء ، وقد ولد باليمن ونشأ بها ، وولى بها القضاء ، واتصف بالزهد والصلاح ، ويقول عنه ابن خلكان إنه من الأبناء ومعنى ذلك أنه من سلالة رجال الجيش الفارسي الذي

(٢) وفيات الأعيان الجزء الثاني صفحة ٤٢١ تحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد

جاء إلى ألين لمساعدة سيف بن ذى يزن الحيرى على طرد الأحباش الذين استولوا على ملكه ، وقد أمدّه بهذا الجيش كسرى لأنو شروان حينما ذهب إليه واستنجده على الأحباش ، وقد استوطن جند هذا الجيش ألين وتأهلوا ورزقوا الأولاد ، وسلاطهم يدعون الأبناء ، ويقول عنه يافوت إنه « كان من خيسار التابعين ثقة صدوقاً ^(١) » ، وكان وهب فيما يقال كثير النقل من السكتب القديمة المعروفة بالإسرائيليات ، وينسب إليه كتاب اسمه « الملوك المتوجة من حير وأخبارهم » ، وقد عرف وهب ما تحويه كتب المسيحيين واليهود المقدسة عن طريق صلاته باليمنيين من أهل السكتاب ، وكانوا كثيرين باليمن ، والظاهر أن زهده وصلاحه وعلمه لم تجنّبه أذى الولاة ، فقد حبس وهو شيخ متقدم فى السن وضرب حتى أشفى على الموت لأسباب غير معروفة ، ووهب من الثقات الذين يعمل عليهم فى قصص الأنبياء خاصة ، وقد تناول كذلك تاريخ الأولياء الذين لم يصلوا إلى مرتبة النبوة ، وقد عنى وهب بأخبار وطنه ألين عناية خاصة ، وطريقته أقرب إلى القصص التاريخية منها إلى التاريخ الخالص ، وما يروى من كلام وهب قوله « العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والصبر جنوده والرفق أبوه واللين أخوه » ، وهو كلام يدل على أن الرجل قد استفاد على ما يظهر من دراسة التاريخ وكثرة التجارب وطول العمر .

واشتهر محمد بن مسلم الزهرى بسعة العلم ومعرفة الأنساب ، وساعد حبه لجمع الأخبار ذاكرة قوية . وكان معنياً بكتابة ما يسمع على غير ما كان مألوفاً بين معاصريه ، وقد ألف الزهرى إلى جانب المواد التى دونها لاستعماله الخاص كتاباً عن القبائل العربية بأمر من خالد القسرى ، ولكنه لم يتمه ، وقد كتب فى السيرة كذلك ، وكان كثير الاتصال بالخلفاء الأمويين ، وقد أخذ عليه ذلك ، وتوفى الزهرى سنة ١٢٤ هجرية ، وقد قدر عليه عمر بن عبد العزيز حتى كتب إلى الآفاق يقول « عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه » ، ومن عرفوا برواية الأخبار أبان بن عثمان اللؤلؤى ويعرف بالأحمر البجلي

وموطنه الأصلي الكوفة ، ولكنه كان يسكنها قارة والبصرة أخرى ، وقد أخذ عنه من أهل البصرة أبو عبيدة معمر بن المثنى ، ومحمد بن سلام الجمحي ، وقد أكثر الحكاية عنه في أخبار الشعراء والنسب والأيام ، ولم يعرف من مصنفاته إلا كتاب جمع فيه المبدأ والمبعث والمغازي والوفاء والسقيفة والردة .

وأكثر ما كتبه المؤرخون المتقدمون قد فُقد وضاع أو لحقه التحريف وأضيف إليه ما لم يكن به ، ولم يصل إلينا منها كاملاً سوى سيرة عبد الملك ابن هشام المعروفة بسيرة ابن هشام . وهي مختصرة من سيرة ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ ، وقد بز ابن إسحاق جميع المؤرخين المتقدمين وأناف عليهم بغزارة معلوماته ، وسعة إحاظته ، وقدرته على تنسيق الأخبار التي جمعها ، وبراعته في عرضها ، وكان جده يسار من سبي (١) عين النمر ، وهو أول سبي دخل المدينة من العراق وكان أبوه شغوفاً بجمع الأحاديث ، وكان ابنه يروى عنه الكثير من الأحاديث مما يوضح أنه شغل برواية الحديث منذ حداثة ، وزاد معلوماته بعد ذلك عن طريق اتصاله بكبار علماء عصره مثل عاصم بن عمر وعبد الله بن أبي بكر والزهرى ، ولم يكتف بذلك بل حاول أن يحصل على الأخبار من شتى المصادر ورحل إلى مصر ، وزار الإسكندرية ، وسمع من يزيد بن أبي حبيب ، وعاد إلى المدينة ، ولم تطلب له الإقامة بها لوقوع خلاف بينه وبين اثنين من كبار علمائها ، وهما هشام بن عروة ومالك بن أنس ، أما هشام فقد غضب عليه لأنه بلغه أنه يروى عن فاطمة بنت المنذر بن الزبير امرأة هشام فقال « هو كان يدخل على امرأتى؟ » كأنه أنكر ذلك ، أما خصومة مالك بن أنس فسيبها فيما يقال أن ابن إسحاق كان يتمسك بمذهب القدر . وبلغ ما لكان أن محمد بن إسحاق يقول ، إعرضوا على علم مالك بن أنس فإنى أنا بيطاره ، فقال مالك « أنظروا إلى دجال من الدجاجة يقول إعرضوا على علم مالك . »

(١) بلدة قريبة من الأنبار

وقدر حل ابن إسحاق من المدينة إلى الكوفة ، ولم تعرف عن ابن إسحاق صلوات
ببلاط دمشق على خلاف أستاذه الزهرى ، وربما كان لسقوط الدولة الاموية في
سنة ١٣٢ واستيلاء العباسيين على الخلافة أثر في تشجيعه على مغادرة المدينة
والانتقال إلى العراق ، وقد زار الجزيرة والرى وبغداد ، وقصد الخليفة المنصور
وهو في الحيرة ، وتقول الرواية إنه دخل على المنصور وبين يديه ابنه المهدي
فالتفت إليه المنصور وقال له .

« أتعرف هذا يا ابن إسحاق ؟ »

فقال « نعم ، هذا ابن أمير المؤمنين » .

فقال المنصور « اذهب فصنف له كتاباً منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام
إلى يومك هذا » .

فصنف ابن إسحاق كتابه ، ويروى أن المنصور قال له « لقد طولته
يا ابن إسحاق ، اذهب فاختره » .

وحفظ المنصور الكتاب الكبير في خزائنه .

ومهما يكن نصيب هذه الرواية من الصحة فإن ابن إسحاق وضع كتابه على
أساس الأحاديث التي جمعها وهو في المدينة ، وبرغم اتصاله بالعباسيين قيل عنه
إنه كان يتشيع ، وكان له انقطاع إلى عمه الله بن حسن بن حسن ، وكان يأتيه
بالشئ فيقول له « إثبت هذا في علمك ، فيثبته ويرويه (١)

والآراء بوجه عام مختلفة في علمه والثقة به ، فعاصم بن عمر يقول عنه « لا يزال
في الناس علم ماعاش محمد بن إسحاق » وقال ابن شهاب الزهرى « من أراد المغازى
فعليه بابن إسحاق » ويقول عند ابن خلكان « كان محمد ثبناً في الحديث عند أكبر

العلماء وأما في المغازي والسير فلا تجهل إمامته ، وقال سفيان بن عيينة ، ما أدركت أحداً يتهم ابن إسحاق في حديثه ، وحكى عن ابن حنبل وغيره من العلماء الأعلام أنهم وثقوه واحتجوا بحديثه ، ولكن بعض أصحاب الحديث من ناحية أخرى يضعفونه ويتهمونهم ، وقال عنه ابن سلام الجعفي ، وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل منه كل غشاء محمد بن إسحاق وكان من علماء الناس بالسير فقبل عنه الناس الأشعار وكان يعتذر منها ويقول لا علم لي بالشعر إنما أوتي به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذر فكاتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ ألوف من السنين ؟ (١) ونقد ابن سلام له وجاهته ، ويذكر ابن هشام في كتابه أن كثيراً من القصائد التي ذكرها ابن إسحاق غير معروفة عند أهل العلم بالشعر ويندر أن يذكر ابن إسحاق أسماء الذين أمدوه بهذه القصائد ، على أنه قد يخفف من وقع نقد ابن سلام أن القصائد التي ذكرها ابن إسحاق لم تكن جميعها من زائف الشعر وسفسافة ، وأن جانباً منها من المقطوع بصحة وأن ابن إسحاق لم يعن بذكرها للاستشهاد على صحة الوقائع التي ذكرها وإنما أتى بها من قبيل التشويق والترغيب وتهئية الجو المناسب لرواية القصة ، وكان إدخال القصائد والمقطوعات الشعرية في الأخبار المروية من الأساليب الفنية المأثورة في القصص عند العرب ، وفي أخبار أيام العرب والغزوات الإسلامية أمثلة كثيرة لذلك ، وقد سار أكثر مؤرخي الإسلام على هذا النهج في مؤلفاتهم ، وقد حملت ابن إسحاق شدة تعلقة بهذه الطريقة على رواية بعض القصائد التي نظمها خصوم النبي ونهى النبي عن روايتها ، ومهما تختلف الآراء في تقدير الأخبار التي جمعها ابن إسحاق فإن لكتابها مكانة كبيرة من ناحيتين التاريخية والأدبية لعدم عهده ، وغزارة مادته ، وصحة روايته إلى حد كبير .

أما ابن هشام الذى روى لنا سيرة محمد بن إسحاق فهو أبو محمد عبد الملك ابن هشام من المتقدمين فى علم النسب والنحو ، وقد عاش فى مصر وأصله من البصرة ، وله كتاب فى أنساب حمير وملوكها وكتاب آخر فى شرح ما وقع فى أشعار السير من الغريب ، وقد توفى سنة ٢١٣ هجرية ، وفى رواية أخرى سنة ٢١٨ ، وقد جمع السيرة من المغازى والسير لابن إسحق وهذبها ولخصها ؛ وقد أشار فى صدر الكتاب إلى ما أجراه من حذف فقال (١) وأنا إن شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ولده وأولادهم لأصلاهم الأول فالأول من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة للاختصار إلى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق فى هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ولأنزل فيه من القرآن شيء وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيراً له ، ولا شاهداً عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشفع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره ، وبعض لم يقر لنا البكاى بروايته ومستهقص إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به ، وقد قام ابن هشام ببعض التصحيحات ، وزود السيرة بإضافات كثيرة فى الأنساب واللغة ، وكان دائماً ينبه على ما يضيفه ، ويشير إلى ما يحذفه ، دون أن يغير فى النص الأصلى ، ولا نزاع فى أن ابن هشام قد بذل جهداً مشكوراً فى هذا العمل ، ولكن قد يخطر لنا بعد ذلك كله أن نسأل هل كان من حق ابن هشام أن يتناول مؤلف غيره بالحذف والإضافة ؟ أما كان الأولى به أن يترك كتاب ابن إسحاق على حاله ويكتسب سيرة مستقلة يرجع فيها إلى ابن إسحق وغيره من مؤرخى السيرة ؟ إننا هنا بإزاء مشكلة أدبية قد تختلف فيها الآراء وتعارض الأحكام .

ومن أشهر نقلة الأخبار أبو مخنف ، واسمه لوط بن يحيى ، وكان جده من أصحاب علي ، وقد روى عن النبي ، وكان أبو مخنف راوية أخباريا صاحب تصانيف في الفتوح وحروب الإسلام ، وهو كوفي الأصل ، وكان يعد مرجعاً في أخبار العراق وفتوحها ، وأكثر كتبه تدور حول الحوادث التي وقعت في العراق ، وقد توفي سنة ١٥٧ ، وهو ممن اعتمد عليهم الطبري في تاريخه المشهور .

ومن نقلة الأخبار الذين اشتهروا قبل رواج الكتب عوانة بن الحكم ، وكان عالماً بالأخبار والآثار ثقة ، روى عنه الأصمعي والهيثم بن عدي وكثير من أعيان العلماء ، وهو رجل من أصل متواضع ، ويقال إن أباه كان عبداً خياطاً ، وكانت أمه أمة سوداء ، وقد عاب شيئاً من شعر ذي الرمة فبهجاه بأبيات يقول منها :

الكنى (١) فإني مرسل برسالة إلى حكم من غير حب ولا قرب
فلو كنت من كلب صميها هجوتها ولكن لعمرى لا إخالك من كلب
ولكنما أخبرت أنك ملصق كما ألصقت من غيره ثلبة القعب
تدهدي نفرت ثلبة من صحبيحه فلز بأخرى بالغراء وبالشعب

وهو يعد من علماء النكوفة بالأخبار خاصة والفتوح مع علم بالشعر ، وعامة أخبار المدائن منقولة عنه ، وروى عنه أنه كان عثمانى النزعة وكان يضع أخباراً لبنى أمية ، وفي رواية أخرى أن ميوله كانت علوية ، وأنه لما بلغه خبر مقتل محمد ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بالمدينة ترحم عليه وذكر فضله وأثنى عليه ، وقيل عنه إنه أنشد بيتين من الشعر فسهل لمن هما ؟ فقال : أنا تركت الحديث بغضامني للإسناد وليس أراكم تعفوني منه في الشعر ، وكان عوانة ضريباً وقد توفي سنة ١٤٧ هجرية وقيل سنة ١٥٨ هجرية وهي السنة التي مات فيها المنصور .

(١) الكنى إلى فلان أى أبلغه عنى والقعب القدح وتدهدى أى تدرج واقلب ولزبكذا أى ألصق به وأخبار عوانة في معجم الأدباء جزء ١٦ صفحة ١٣٤ .

ومن أوسع مؤانى القرن الثانى الهجرى علماً وأكثرهم مؤلفات فى التاريخ والسير والأخبار على بن محمد المدائنى ، وقد ولد فى البصرة سنة ١٣٥ هجرية وسكن المدائن ثم انتقل عنها إلى بغداد فلم يزل بها إلى حين وفاته فى سنة ٢٢٥ هجرية واتصل فيها بإسحاق بن إبراهيم الموصلى ، وقد أسبغ عليه إسحاق عطفه وشمله برعايته ، وكان حجة فى أخباره وثقة فى روايته ، وقد مثل مرة بين يدى المأمون وتناول الحديث ذكر على بن أبى طالب ، فحدثه المدائنى بأحاديث عنه إلى أن ذكر المأمون لعن بنى أمية له ، فروى له المدائنى عن أبى سلمة المثنى أن رجلاً أخبره بالخبر الآتى قائلاً : كنت بالشام فجعلت لا أسمع أحداً يسمى علياً ولا حسناً ولا حسيناً ، وإنما أسمع معاوية ويزيد والوليد ، فررت برجل جالس على باب داره وقد عطشت فاستسقيته ، فقال : يا حسن إسقه ، فقلت له : أسميت حسناً ؟

فقال : أى والله ، إن لى أولاداً أسماؤهم حسن وحسين وجعفر ، فإن أهل الشام يسمون أولادهم بأسماء خلفاء الله ، ولا يزال أحدنا يلعن ولده ويشتمه وإنما سميت أولادى بأسماء أعداء الله ، فإذا لعنت إنما ألعن أعداء الله ، فقلت له وظفتك خير أهل الشام وإذا جهنم ليس فيها شر منك ، فقال المأمون

ولا جرم قد ابتعث الله عليهم من يلعن أحبياءهم وأمواتهم ويلعن من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وقد ذكر ياقوت من مؤلفات المدائنى عدداً كبيراً من الكتب تكاد تكون أقرب إلى فصول قائمة بذاتها منها إلى أن تكون كتباً شاملة مبنية . فمنها كتاب عن أمهات النبى وآخر عن صفته وكتاب عن أخبار المنافقين وكتاب عن عهود النبى ، ومنها كتاب عن أخبار قريش ومجموعة أخرى من الكتب فى أخبار الخلفاء ، وكتب أخرى فى الأحداث منها كتاب الردة وكتاب الجمل ، وسلسلة أخرى من الكتب عن الفتوح منها كتاب فتوح الشام وكتاب فتوح العراق ، ومنها كتب فى أخبار العرب وكتب أخرى فى أخبار الشعراء ، وواضح أن جهده الأدنى كان ضخماً هائلاً وأن اطلاعه كان واسعاً شاملاً ، وقد انتفع بما كتبه المدائنى المؤلفون الذين جاءوا بعده فأكثرُوا من

النقل عنه ، وقد اعتمد عليه ابن عبد ربه في كتاب العقد ، ويقال إنه نقل كثيراً عن عوادة الأخباري .

ويشبهه المدائني في مادته وطريقته وتناوله الموضوعات هشام بن محمد بن السائب الكلبي . وقد نشأ هشام في الكوفة ، وكان نسابة عالماً بأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها ، ومؤلفاته كثيرة ، بعضها فيما قارب الإسلام من أمر الجاهلية ، وبعضها في أخبار الإسلام وأخبار البلدان وأخبار الشعراء وأيام العرب ، وقد ضاعت أكثر كتبه ولم يبق إلا الروايات المنقولة عنها : وهو مؤلف كتاب الأصنام ، وهو كتاب صغير الحجم ، والأرجح أن أغلب كتبه كانت من هذا الحجم الصغير ، وقد ألف هشام المأمون كتاب « الأنساب » وصنف لجعفر البرمكي كتاب الملوك ، في النسب ، وكان جعفر يعطف عليه ويصطنعه ، وقد توفي هشام سنة ٢٠٦ هجرية .

والمؤرخ الذي حاز شهرة واسعة في القرن الثاني الهجري هو الواقدي ، واسمه محمد بن عمر . وكان عالماً بالحديث والمغازي والفتوح ، وقد قرأه المأمون وولاه القضاء بشرق بغداد ، وقد عرف الواقدي بغزارة العلم ، وكان ثقة في أخبار الناس والسير والفقهاء وسائر الفنون ، وكان المأمون يقدره تقديراً عالياً ويبالغ في رعايته ، كتب إليه مرة يشكو ضائقة لحقته وركبه بسببها دين ، وعين مقداره في قصته ، فوقع المأمون فيها بخطه « فيك خلطان سخاء وحياء ، فالسخاء أطلق يديك بتبذير ماملسكت ، والحياء حملك أن ذكرت لنا بعض دينك ، وقد أمرنا لك بضعف ماسألت ، وإن كنا قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنانيتك على نفسك ، وإن كنا بلغنا بغيتك فزد في بسطة يدك ، فإن خزانة الله مفتوحة ، ويده بالخير مبسوط ، وأنت حدثتني حين كنت على قضاء الرشيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للزبير « يا زبير إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش ، ينزل الله سبحانه للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ، فنكثر كثر له ، ومن قلل قلل عليه ، وقال الواقدي « كنت نسيت الحديث فكانت هذا كرة المأمون إياي أعجب إلى من صلته ،

وقد ذكر عنه ياقوت وابن خلكان أخباراً تدل على نبل أخلاقه وسماحة نفسه ووفائه لأصدقائه . ومؤلفاته كثيرة منها : كتاب المغازي وكتاب أخبار مكة وكتاب السيرة وكتاب فتوح الشام ، ويمكن أن يستدل من عناوين كتبه على عظيم قيمتها لو كانت حفظت لنا ، وبالرغم من أن طائفة من المحدثين ضعفوه فإنه في أخبار الناس والسير والفقه وسائر الفنون ثقة بالإجماع ، وقد ولد سنة ١٣٠ هجرية وتوفي سنة ٢٠٧ .

ومن مؤرخي القرن الثاني الهجري البارزين الهيثم بن عدي ، وكانت ولادته قبل سنة ١٣٠ هجرية وتوفي سنة ٢٠٧ هجرية وقيل سنة ٢٠٩ ، وكان واسع الاطلاع على كلام العرب وعلومها وأشعارها ولغاتها الكثيرة ، ووعاء من أوعية العلم ، وأصل أسرته من منبج ولسكنه ولد بالكوفة ، وقد اشتهر بالرواية ونقل من أخبار العرب وأشعارها ولغاتها شيئاً كثيراً ، ولسكنه لم يكن ثقة في الحديث ، وإنما هو صاحب أخبار ، وكانت جاريته تقول عنه « كان مولاي يقوم عامة الليل يصلي فإذا أصبح جلس يكذب (١) » وقد أذاع عنه بعض خصومه أنه ذكر في العباس بن عبد المطلب بشيء خبيث لذلك ، وقد حضر مجلسه مرة الشاعر أبو نواس في حديثه ، والهيثم لا يعرفه ، فلم يستدنه ولا أقربه ، فقام أبو نواس مخضباً ، فسأل الهيثم عنه فعرفوه به فقال « إنا لله ! هذه والله بلية لم أجتها على نفسي فتقوموا بنا إليه لنعتذر ، فساروا إليه ، ودق الهيثم عليه الباب وتسمى له ، فقال « أدخل » فدخل فإذا هو قاعد يصفي نبيذاً له وقد أصاح بيته بما يصلح به مثله ، فقال الهيثم « المَعذرة إلى الله تعالى ثم إليك » فما عرفتك وما الذنب إلا لك حيث لم تعرفنا نفسك ، فنقض حقك ، ونبلغ الواجب من برك » فأظهر له أبو نواس قبول المَعذرة ، فقال الهيثم « أستعهدك من قول سبق منك في » فقال « ما قد مضى فلا حيلة فيه ، ولك الأمان بما أستاذتف » .

فقال الهيثم « ما الذى مضى جعلت هذاك ؟ »

فقال أبو نواس « بيت مر وأنا فيما رأيت من الغضب ، » .

قال الهيثم « أنشدنيهِ ، » .

فتمنع أبو نواس ودافعه ، وألح عليه الهيثم فأأنشده .

يا هيثم بن عدى لست للعرب

ولست من طيء إلا على شغب

إذا نسيت عديا فى بنى نعل

فقدم الدال قبل العين فى النسب

وقام الهيثم من عنده ، ثم بلغه بعد ذلك بقية الأبيات وقد ختمها أبو نواس
بقوله :

لله أنت فى قربى تهم بها إلا اجتلبت لها الأنساب من كُتب

فعاد الهيثم إليه ، وقال له « ياسبحان الله قد أمنتني وجعلت لى عهداً

ألا تهجونى ، فقال أبو نواس « لأنهم يقولون مالا يفعلون ، » .

والظاهر أن حب الاستطلاع ، والرغبة فى جمع الأخبار ، والحرص على
الاحاطة بكل شاردة وواردة منها كانت تصل بالهيثم إلى حد التجسس على أحوال
معاصريه ومحاولة معرفة أسرار حياتهم الخاصة ، وعيوبهم الخفية ، وكان الهيثم
يروى تلك الأخبار على وجوهها ، ويشيع ما كتموا ، فكرهه الناس من أجل
ذلك ، وشوا به إلى الولاية ، وأغروا به الشعراء فأوسعوه هجواً ، وقد بلغ
الحقد عليه وكرهته من المدعو أبى يعقوب الخريمى إلى حد أنه ذهب إلى شاعر
يسمى على بن جبلة المعروف بالعسكوك يسأله هجاء الهيثم ، وقد دارت بينهما
هذه المحادثة :

الخرمى : إن لى إلك حاجة ا .

العكوك : دماهى ؟ .

الخرمى : تهجولى الهيثم بن عدى ا .

العكوك : د ومالك أنت لاتهمجوه وأنت شاعر ؟ .

الخرمى : د قد فعلت فها جاءنى شىء كما أريد ا .

العكوك : د ولكن كيف أهجو رجلا لم يتقدم إلى منه إساءة ولا له جرم
يحفظنى ؟ .

الخرمى : د تقرضنى فإنى ملء بالوفاء والقضاء .

العكوك : د نعم فأمهلى اليوم .

ولما غدا الخرمى على العكوك يستنجزه وعده أسمعته آياتا فى هجاء الهيثم
يقول منها :

للهيثم بن عدى نسبة جمعت آياه فأراحتنا من العدد

أعدد غديا فلو مد البقاء له ماعمر الناس لم ينقص ولم يزد

والرجل الذى يتقارض الشعراء هجاءه يغلب على الظن أنه كان فى طباعه ما يثير
الكراهية ، ويحمل على الضغينة ، ويقال عن الهيثم إنه كان يرى رأى الخوارج (١) ،
وقد اختص بمجالسة المنصور والمهدى والمهادى والرشيد وروى عنهم ، ومن كتبه
كتاب المثالب وكتاب المعمرين وكتاب بيوتات العرب وكتاب أخبار الفرس .
وثبت كتبه حافل يشمل كتباً عن الحكم والقضاة والخلفاء وحوادث الإسلام
المبكرة وأخبار العرب فى الجاهلية .

وكثير من الروايات التي جمعها هؤلاء المؤرخون الأخباريون المتقدمون محفوظة في مؤلفات المؤرخين الذين جاءوا بعدهم ، فقد فقدت معظم مؤلفاتهم ، وبالرغم من ضياع مؤلفات هؤلاء الأخباريين فإن جهدهم لم يذهب عبثا ، وقد أدى أمثال المدائني والهيثم وهشام وأبي مخنف وابن إسحاق وسائر مؤرخي الطليعة خدمة كبيرة للأدب العربي والتاريخ الإسلامي بما جمعوا من أخبار الحوادث الهامة والروايات الطريفة ، ومهدوا السبيل لظهور كبار المؤرخين الإسلاميين أمثال الطبري واليعقوبي والمسعودي وغيرهم من المؤرخين البارزين الذين أفادوا من المادة الضخمة الدسمة التي جمعها هؤلاء الرواد ، والتراث القيم الذي خلفوه ، بعد أن أمضوا في جمعه بياض نهارهم وسواد ليلهم وزهرة عمرهم .

نشأة التاريخ الإسلامى والطبرى

ظهر الإسلام فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى ، وجمع أشتات القبائل العربية المنتشرة فى شبه الجزيرة العربية ، وانتشر الإسلام بسرعة غير مسبوقة فى التاريخ ، وتمدلت ظلاله الوارفة على بلاد الشام وإيران ومصر والسند وشمال إفريقيا والأندلس ، وأثار العقول فى كل ناحية حل بها ، واستنهض العزائم واستجاش الهمم . والأعمال الجليلة والمساعي الباهرة والمواقف الرائعة تستوجب الإعجاب والتقدير من ناحية ، وتبعث حب المفارقة بها والرغبة فى تخليدها من ناحية أخرى ، ويمهد هذا وذلك السبيل ويفسح المجال لظهور الرجال الذين ينقطعون بلج أخبارها ، واستقصاء أحداثها ، ووصف أحوالها وملابسها ، ومن هؤلاء الرجال الرواة والأخباريون والقاصون والمؤرخون والشعراء ، ولذا نلاحظ أنه لما هدأت فورة الغزوات الإسلامية الظافرة ، وتوقفت حركة الفتوح المتوالية ، كثر القاصون والرواة والأخباريون والمؤرخون الذين يفصلون أخبارها ، ويتحدثون عن وقائعها ومشاهدها ، ويصفون أبطالها وقادتها .

وقد كانت الأمية غالبية على العرب فى جاهليتهم ، ولذلك كانت معلوماتهم التاريخية قليلة محدودة بالرغم مما عرف عنهم من قوة الذاكرة وصفاء الخاطر والتابع الذكاء ، وكانت هذه المعلومات تسكاد تقتصر على معرفة سلاسل أنسابهم التى يؤكدون بها عراقة أصولهم ولإمامهم بما يسمى « أيام العرب » . وهى أخبار الحروب الداخلية التى نشبت بين القبائل المختلفة مثل حرب البسوس . وحرب داحس والغبراء وما إلى ذلك من الوقائع المحلية ، يضاف إلى ذلك أخبار القبائل البائدة التى كانوا يتناقلونها وبعض ما انتهى إليهم من حوادث التوراة والتلذود عن أخبار اليهود أوقس النصارى ، ولمن من الأخبار المتفرقة عن الأمم التى جاورتهم واحتكت بهم .

ولم يكن عندهم بطبيعة الحال مؤلفات تاريخية ، ولا مدونات للحوادث
والسكوائن ، ويمكن أن نستنتج من ذلك الغرب الذين استطاعوا أن يأخذوا في
جاهليتهم بنصيب من الاستقرار والحضارة ، مثل عرب اليمن وعرب الحيرة ، فقد
ترك أهل اليمن طرفاً من أخبار ملوكهم وأحوالهم العامة منقوشة بالخط المسند على
قصورهم ومبانيهم في مختلف محافدهم ، وخلف أهل الحيرة أخبارهم وأنسابهم
ومبالغ أعمارهم من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنينهم وما إلى ذلك من
أمورهم في مدونات استودعوها يبيع الحيرة .

ولما كان النبي العربي هو باعث النهضة ومحركها الأول فمن الطبيعي والمعقول
أن تصبح سيرته أول موضوع للتاريخ الإسلامي ، وأن يتبع ذلك في الأهمية
تاريخ صحابته الأوفياء الذين حاربوا تحت ألوته ، واستشهدوا في سبيل دعوته ،
وأبلاوا بلاء حسناً في توطيدها ، وأزالوا العقبات في طريق نشرها وإذاعتها
وتعليقها .

وتدل أكثر القرائن على أن التاريخ الإسلامي نشأ نشأة مستقلة غير متأثرة
بما كتبه أعلام المؤرخين اليونانيين أو الرومانيين ، فلم يعرف العرب أمثال
هيرودوت وتوكوتيدس وزينوفون عند اليونان ، أو تيتوس ليفيوس وتاسيتوس
عند الرومان ، وكانت نشأته استجابة لمطالب العالم الإسلامي وحاجاته وتطوراته
ومن المزايا التي اشتهر بها مؤرخو الإسلام مراعاة الدقة في تسجيل الحوادث
وتأريخها بالسنة والشهر واليوم ، وينقل مرجليوث في كتابه عن مؤرخي العرب
عن المؤرخ الإنجليزي المشهور بكل قوله : إن التوقيت على هذا النحو لم يعرف
في أوروبا قبل عام ١٥٩٧ ميلادية ، وقد ابتدأ التاريخ بالهجرة في عهد عمر
ابن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين .

والخصلة الثانية التي امتاز بها التاريخ الإسلامي هي الإسناد ، وهو إرجاع
الرواية التاريخية إلى شخص شاهد عيان ، وفي سبيل تحري صحة الأحاديث المنسوبة
إلى النبي نشأ نوع من التحقيق يقوم على فحص سلسلة الإسناد ، ويتبع كيف
وصل الحديث إلى كل جيل من الأجيال المتوالية ، وكان دارسو الحديث في بادئ

الأمم المؤرخين ، ولكن التاريخ استقل بالتدريج عن علم الحديث ، وصار
الأخبارى شخصاً آخر غير المحدث ، ولكنه أقل منه في المنزلة والتقدير .

ولم تقو حركة كتابة التاريخ الإسلامى وتنشط إلا في أواخر عهد الدولة
الأموية ، ولعل السبب في هذا التأخير هو قوة ذاكرة العرب واعتمادهم الشديد
على هذه الذاكرة الراحية القوية ، يضاف إلى ذلك اعتبار آخر أشار إليه مرجليوث
وربما كانت له أهميته ، وذلك أن الحرص على معرفة السنة كان من شأنه أن يعلى
مكانة الحفاظ ، ويجعل الحاجة إليهم ماسة ، ووظيفة الحفاظ هي أن يكون عنده
معرفة دقيقة شاملة واسعة للحوادث التي يروونها ، وهذه المكانة التي بلغها الحفاظ
كان مما يضعفها من غير شك إمكان الحصول على هذه المعرفة بتفصيلاتها من
الكتب ، وقد تعب الحفاظ في تحصيلها والتثبت من صحتها ، وكان بهم هؤلاء
الحفاظ أن يظنوا مرجعاً للتحصيل وأوعية للعلم ، على أن المادة التي بدأت تكتب
في عهد العباسيين لم تؤثر في مكانة الحفاظ ، وأكثر مؤلفي الكتب أنفسهم كانوا
من هذه الطبقة ، وأرجع أن سبب اضطرابهم إلى الكتابة والتدوين على نطاق
واسع هو تكاثر المعلومات التاريخية إلى حد جعل الذاكرات حتى القوية منها تنوء
تحت أعبائها ، وقد أوجد الحفاظ حلاً وسطاً ، وهو طريقة الإجازة ، وهي
أن يقرأ القارئ الكتاب ويدرسه على المؤلف نفسه أو من تكون له الأهلية
والاستعداد لذلك .

وفي عصر الطبري كان الناس يسمعون منه التاريخ والتفسير ، وكان العلم
المستمد من الكتب وحدها ينتقص ، ويطن في قيمته ، ويفضل عليه العلم المنقول
بالسمع ، فهناك إذاً أسباب أبطأت بحركة الكتابة والتدوين أبرزها أن وظيفة
الحفاظ جعلت الكتب لا لزوم لها ، ثم الاعتقاد بأن الكتب المكتوبة قد تكون
وثائق لا يعتمد عليها ولا يوثق بها لأنها قابلة للتزوير والتزييف .

وقد تغير هذا النوع من التفكير مع الزمن . وقد استلزم تفسير القرآن
ضروباً من المعارف ربما كان في طليعتها المعرفة التاريخية . فالقرآن يشير إلى بعض

للحوادث المعاصرة لنزوله ، ومن ثم نشأت الحاجة إلى معرفة مناسبات النزول ، والنصوص القرآنية تتناول الحوادث في صورة تليجية ، وتكتفى بالإيجاز عن الإطناب والتفصيل لتستخرج العبرة أو تستنبط الحكم والقاعدة ، والذين نزلت فيهم الآيات كانوا يعرفون تفصيلات الظروف الموجبة للنزول ، ويعرفون مناسباته وملايساته ، ولكن الجليل التالى كان مضطراً إلى معرفة تلك التفصيلات ، ومن ثم احتاج المفسرون إلى التاريخ وإلى دراسة الظروف التى ولد فيها الإسلام ليقروا القرآن عن فهم وبصيرة .

وفى القرآن كذلك إشارات تاريخية ولحات عن الأمم السالفة ومواقف الأنبياء المتقدمين . والذي يريد أن يتفقه فى الدين ويستمكن من العلم يحرص على الرجوع إلى كتب المسيحيين واليهود ليزداد معلوماته ، وتوسع آفاق معرفته ، ولم يكن الرجوع إلى تلك الكتب فيما أعلم محرماً أو ممنوعاً ، ولكنه لم يكن فى الوقت نفسه مما يشجع عليه ، ومن ناحية أخرى كان اليهود أو المسيحيون الذين دخلوا فى الدين الإسلامى يميلون إلى الانتفاع بما فى ذاكرتهم عن الحوادث التى أشار إليها القرآن إشارات سريعة خاطفة لينفذ إلى الجوهر واللباب ، وقد اقتضى ذلك التوسع فى معرفة التاريخ ، والاستكشاف من أخبار الأنبياء المتقدمين ، والأمم الوارد ذكرها فى القرآن .

ومن أسباب التوسع فى التاريخ كذلك رغبة بعض الخلفاء فى استماع أخبار الملوك السابقين لينتفعوا بتجاربهم ، ويتعرفوا سياساتهم ، ذكر المسعودى أن معاوية كان يستمع كل ليلة إلى أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياساتها لرعيها ، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة . فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ، وكذلك كان المنصور يحرص على معرفة التاريخ للاستفادة من تجارب الماضين واستخلاص العبرة من سياساتهم ، ذكر عنه فى الجزء الثانى من كتاب الامامة والسياسة^(١)

(١) وهذه الرواية نفسها موجودة فى الجزء الثالث من كتاب البيان والتبيين لاجايد

أنه حينما هم بقتل أبي مسلم استدعى إسحاق بن مسلم العقيلي وقال له « حدثني عن الملك الذي كنت حدثتني عنه بحران » فقال له « نعم ، أكرمك الله ، أخبرني أبي عن حصين بن المنذر أن مسلماً من ملوك الفرس يقال له سابور الأكبر كان له وزير فاصح قد أخذ أدبا من آداب الملوك وشاب ذلك بفهم في الدين ، وقص عليه الحديث ، وخلاصته أن سابور أنفذ وزيره إلى خراسان يدعو أهلها إلى طاعته وكانوا قد خرجوا عليه ، وثاروا به ، ففضى الوزير وسعى في تحجيب الناس له ودعاهم إلى طاعة نفسه ، ولما استفحل أمره صمم سابور على قتله عند رجوعه إليه بأعيان خراسان ، فلما حضروا بقتلهم فلم ينتهبوا إلا ورأس الوزير بين أيديهم . فاضطروا إلى طاعة سابور ، فلما سمع المنصور هذه القصة بما فيها من المشابهة بين سلوك الوزير وسلوك أبي مسلم أطرق ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول .

لدى الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلم

وكان تقدير عطاء الجند يقتضى معرفة الأنساب ، وكذلك رغبة الدولة في معرفة البلاد التي فتحت صلحاً أو التي اقتحمت عنوة أو بعد ، فقد كان لكل حالة من هذه الحالات حكم خاص بها من ناحية فرض الجزية وتقدير الخراج ، وبدون تدوين التاريخ كانت المحافظة على هذه الحقوق تكاد تكون غير ميسورة ، وبغير المعرفة التاريخية لا يمكن الثبوت من صحة المعاهدات .

وفي عهد عبد الملك بن مروان أصبحت الدواوين عربية ، وقد شجع نقل كتابة الدواوين إلى العربية على نشأة الكتابة التاريخية وانتشارها ، وأوجد وظيفة « الكاتب » الذي أصبحت معلوماته بحكم مزاولة عمله واسعة مستفيضة ، ومهد ذلك السبيل لظهور أساليب النثر العربي ، وقد أصبح الكاتب في العصور المتأخرة هو المؤرخ ، لا لأنه أعلم ببواطن الأمور وخفايا السياسات ، وإنما لأنه قد تدرب على معالجة الكتابة في الموضوعات المختلفة .

وأطلق اسم « القصص » على الأشخاص الذين كانوا يعنون بجمع الأخبار الشائعة التي تثير حب الاستطلاع ، وكانوا يسمونهم كذلك الرواة والأخباريين ،

وكانوا يعتقدون حلقات في المساجد ويتحلق حولهم الناس ، وكان كثير من هذه الأخبار يدور حول شخصية النبي وأبطال الإسلام ، أو عن الأنبياء الوارد ذكرهم في القرآن ، وبعض هؤلاء الرواة المتقدمين قد اتهم بالكذب والتلفيق والانتحال والاختراع ، وقد اتهم عوانه الأخبارى بأنه كان يضع الأخبار لبني أمية ، كما روى عنه ضيقه بالإسناد ، وقد أشرت إلى ذلك عند تحدثي عنه في الفصل السابق .

وحاجة النظام القضائي جعلت معرفة التاريخ ضرورة لازمة ، وذلك لأن نشوء السنة كان يستدعى معرفة الأعمال الداعية إلى ذلك ، وقد كانت دراسة الأحاديث مما ساعد على نشوء فن التراجم وعلم الجغرافيا ، وذلك لأن طريقة اختبار صحة الأحاديث كانت تدعو إلى معرفة حياة رواة الحديث وأخلاقهم وسجاياهم وعقليتهم وسلامة تمييزهم والبيئة التي عاشوا فيها وتلقوا العلم بها .

ومن أشهر وأسبق من صنف في المغازي والسير وهب بن منبه وعروة ابن الزبير ومحمد بن مسلم الزهري ، ومهما يكن من الأمر فإن أكثر ما صنف مؤرخو الطليعة قد فقد ، وأقدم ما وصل إلينا هو سيرة النبي لابن هشام المنقولة بعد الحذف والإضافة من سيرة ابن إسحاق .

واشتغال المسلمين في ضرب الخراج اضطرهم إلى تدوين أخبار فتوح البلدان مثل كتاب فتح مصر والمغرب لابن عبد الحكيم المتوفى سنة ٢٥٧ هجرية وفتح بيت المقدس وما إلى ذلك ، ومن أشهر كتب فتوح البلدان كتاب البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هجرية .

وأقدم كتب الطبقات التي وصلت إلينا كتاب الطبقات الكبرى ، أو طبقات الصحابة والتابعين لمحمد بن سعد المعروف بكاتب الواقدي والمتوفى سنة ٢٣٠ هجرية ، وهو يحتوى على تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء إلى وقته ، وقد ألغت كتب على نمطه في طبقات الشعراء وطبقات الأدباء وطبقات النحاة وطبقات اللغويين والمتكلمين والنسابين والأطباء حتى الندماء والمغنين وغيرهم مما جعل كتب التراجم موفورة في الأدب العربي .

ونرى من ذلك أن كتابة التاريخ نشطت وازدهرت وتنوعت في خلال القرن
الثاني الهجري ، ومن أشهر مؤرخي هذه الفترة محمد بن إسحاق والواقدي والهيثم
ابن عدي وهشام بن محمد السائب الكلبي وعلي بن محمد المدائني ، وقد مهد هؤلاء
المؤرخون بما جمعوه من مادة السيل لظهور المؤرخ المحدث الكبير محمد بن جرير
الطبري وأضرابه من كبار المؤرخين الذين عاصروه أو جاءوا بعده .

الطبرى أو المؤرخ المحدث

كان القرن الثالث الهجرى من القرون الخصبه الحفل فى تاريخ الإسلام ، فقد نبغ فيه كثيرون من الشعراء والكتاب والمؤرخين واللغويين والنحاة والمحدثين والفقهاء ، وأينما أدركنا الطرف فى ذلك القرن السرى نجد مؤلفات هامة وكتبها قيمة أصبحت فى القرون التالية مراجع للبحث وأمهات فى فروع المعرفة المختلفة ، وقد عاش فى هذا القرن من الشعراء أمثال البحتري وابن الرومى وابن المعتز ، ومن الكتاب أمثال الجاحظ وابن قتبية الدينورى ، ومن النحاة أمثال المازنى والزجاج وثعلب ، ومن اللغويين أمثال أبى حاتم السجستاني والمبرد ، ومن المؤرخين أمثال البلاذرى وابن طيفور واليعقوبى وأبى حنيفة الدينورى ، ومن أبرز رجال هذا القرن رجلان يمتازان شائخان وهما البخارى صاحب « جامع الصحيح » المشهور بصحيح البخارى والطبرى صاحب التفسير الكبير وكتاب تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبرى ، وكانا كلاهما من كبار المحدثين .

وقد كان التاريخ فى نشأته عند العرب لوناً من ألوان رواية الحديث ، ولما اتسع نطاقه ، وتكاثر مادته ، وتعددت فروعه ، استدعى الأمر وجود نوع من التخصص ، فاقصر بعض المؤرخين على رواية الحديث ، وتجرد فريق آخر منهم لجمع الأخبار ومعرفة الحوادث السالفة ، وصار يطلق على المتخصصين فى ذلك لفظة الأخباريين ، وكان الواقدي وابن إسحاق من الذين انتقلوا من الحديث إلى الأخبار ، وفى ابن جرير الطبرى عاد التياران إلى الالتقاء ، فالطبرى محدث كبير وأخبارى من الطراز الأول ، وتوفر هاتين الخصلتين فى الطبرى من الأسباب التى ساعدت على رفع مستوى المؤرخين عند العرب ، وأعدت إلى التاريخ اعتباره ، وجعلت جهابذة العلماء وكبار الفقهاء لا يتخرجون من دراسة التاريخ ، والتوفر على التأليف فيه ، والانقطاع له .

وقد ولد الطبري سنة أربع أو أول سنة خمس وعشرين ومائتين . وكان مولده بأمل ، وهي قسبة طبرستان ، وقد روى لنا الطبري نفسه سبب تسمية البلاد التي نشأ بها « طبرستان » فقال « جئت إلى أبي حاتم السجستاني وكان عنده حديث عن الأصمعي عن أبي زائدة الشعبي في القياس ، فسألته عنه ، فحدثني به ، وقال لي أبو حاتم « من أي بلد أنت ؟ » فقلت « من طبرستان » فقال « ولم سميت طبرستان ؟ » فقلت « لا أدري » فقال « لما افتتحت وابتدىء ببنائها كانت أرضاً ذات شجر ، فالتسوا ما يقطعون به الشجر ، فجاءوهم بهذا الطبر الذي يقطع به الشجر فسمي الموضوع به (١) »

وقد ظهرت قوة حافظته وشدة إقباله على طلب العلم من بواكير صباه ، قال عن نفسه في خلال حديثه مع أحد أصحابه « حفظت القرآن ولي سبع سنين ؛ وصليت بالناس وأنا ابن ثمان سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين ورأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان معي مخلاة مملوءة حجارة وأنا أرمي بين يديه ، فقال له المعبر « إنه إن كبر نصح في دينه وذب عن شريعته » فحرص أبي على معوقتي على طلب العلم ، وأنا حينئذ صبي صغير ..

ولمح أبوه فيه ذكاء الفطنة ، وتوقد الخاطر ، والإخلاص في طلب العلم والجد في تحصيله ، فبذل جهده ليهيئ له أسباب ذلك .

وكتب الطبري الحديث ببلده ، ثم بالري وما جاورها من البلاد ، وكان العالم الإسلامي حينذاك على اتساع رقعته وتراعى حدوده متصل الأسباب ، وكان التنقل في طلب العلم سهلاً ميسوراً ، فقصده الطبري مدينة السلام ، وهي حينذاك مثابة العلم ، والمنهل العذب للواردين ، وأقام بها حيناً من الزمن يكتب عن شيوخها

(١) وفي كتاب « العرب » للجواليقي صفحة ٢٢٨ أن معنى « التبر » بالفارسية الفأس ، وكتب لك طبرستان كان الشجر حول مدينتها أشبأ ، فلم يوصل إليها حتى قطع الشجر بالفأس

ويحضر مجالسهم ، ويستمع إلى مناقشاتهم وأحاديثهم ومساجلاتهم ، ثم انحدر إلى البصرة فسمع من كان بقي من شيوخها في وقته ، ثم صار إلى الكوفة ليستوفى سماع الأحاديث عن علمائها ، ثم عاد إلى مدينة السلام ، ولزم المقام بها مدة ، وتفقه بها وأخذ في علوم القرآن . ثم غرب فخرج إلى مصر ، وكتب في طريقة عن المشايخ بأجناد الشام والسواحل والشعور وأكثر منها ، ثم صار إلى القسطنطينية في سنة ٢٥٣ وكان بها بقية من الشيوخ وأهل العلم ، فأكبر عنهم الكتابة ، ثم صار إلى الشام ثم رجع إلى مصر ، وظهرت حينذاك قدرته في دراسة القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر ، وقد روى عن نفسه في هذه الفترة قال « لما دخلت مصر لم يبق أحد من أهل العلم إلا لقيني وامتنعني في العلم الذي يتحقق به ، فجاءني يوماً رجل فسألني عن شيء من العروض ولم أكن نشطت له قبل ذلك ، فقلت له « على قول ألا أتكلم اليوم في شيء من العروض ، فإذا كان في غد فصر إلى ، وطابت من صديق لي العروض للخليل بن أحمد ، فجاء به ، فنظرت فيه ليلتي فامسيت غير عروضي وأصبحت عروضياً ، وقد حاول الطبري أن يلم بأطراف المعرفة جميعها في عصره ، ويستوعبها استيعاباً ، ويسر له ذلك قوة ذاكرته ، وجودة فهمه ومثابرتة ، وانصرافه التام للتحصيل ، وزهده في المطالب الدنيوية .

وعاد من مصر إلى مدينة السلام ، وهو يتابع الكتابة عن العلماء ، ويحضر دروسهم ، وزار بلده ، ثم استقر به المقام في بغداد ، واشتهر اسمه فيها ، وشاع خبره بالفهم والتقدم .

وكان الطبري على ما يظهر حراً في تفكيره ، صريحاً في إبداء رأيه ، وكان للحنابلة في بغداد قوة وسطوة ونفوذ وكثرة عديدية ، واتفق أن الطبري ألف كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء ، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فستل عن سبب ذلك ، فقال : « لأنه لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً ، فكبر ذلك على الحنابلة فشغبوا عليه ، ورموه بمحابرهم ، فقام ودخل داره ، فرموا داره بالحجارة حتى صار على بابه كائيل العظيم ، وركب صاحب الشرطة مع الجند لينع عنه العامة ، ووقف على بابه يوماً إلى الليل وأمر برفع الحجارة عنه .

وذكر ياقوت (١) أن الطبري خلا بعد ذلك في داره ، وعمل كتابه المشهور في الاعتذار إليهم ، وذكر مذهبه واعتقاده ، وجرح من ظن فيه غير ذلك ، وفضل أحمد بن حنبل ، وذكر مذهبه ، وتصويب اعتقاده ، ولم يزل في ذكره إلى أن مات .

وقد نظر أبو جعفر في المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكثير من فنون أبواب الحساب وفي الطب وأخذ منه قسطاً وافراً ، قال عنه أحد معاصريه ، إنه كان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن ، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث ، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه ، وكالنجوى الذي لا يعرف إلا النجوى ، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب ، وكان عالماً بالعبادات جامعاً للعلوم .

وهذا العلم الواسع ، والمعرفة الغزيرة ، والتحصيل الدائب ، مع ثقته بنفسه وعلمه همته ، جعله يقدم على تفسير القرآن ، ويضطلع بهذه التبعة الخطيرة . ولما هم بتفسير القرآن قال لأصحابه : أنشطون لتفسير القرآن ؟ ، فقالوا : كم يكون قدره ؟ ، فقال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا : هذا بما يفنى الأعمار قبل تمامه . فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة ، وقد وفق في تفسيره . وحاز إعجاب العلماء الأعلام ، وظفر بتقديرهم العالي . والظاهر أن تفسير القرآن اضطره إلى مراجعات تاريخية كثيرة ، وأوحى إليه فكرة كتابة تاريخ العالم ، ولما اتوى ذلك بعد فراغه من التفسير شاور أصحابه فقال لهم : أنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ؟ ، فقالوا : كم قدره ؟ ، فذكر نحواً مما ذكره في التفسير ، فأجابوه بمثل ذلك ، فقال : إنا لله ! ماتت الهمة ! ، فاختصره في نحو ما اختصر التفسير .

وقد أفاد الطبري من المواد التي جمعها مؤرخو القرن الثاني الهجري ، وانتفع بحركة النقل عن اللغات الأجنبية التي بدأت في ذلك القرن ، واستعمل طريقة الإسناد التي جرى عليها رواة الحديث . وقد تأثر بطريقتهم في كتابه ، واستطاع أن يجمع فيه مجموعة كبيرة من مختلف الروايات والأخبار التاريخية استوعبت

كل ما تقدمها ، وقد استطاع أن يربط بعضها ببعض ببراعة فائقة . وعيب الطبرى الأصل هو عيب مؤرخى العرب إجماعهم ، وهو أنهم لا يتجاوزون الوصف والسرد الحولى . ولم يفكر الطبرى فى تلميل الحوادث ، ولم يحاول تعرف أسبابها ، ولم يعمل على كشف البواعث العميقة المستخفية التى تعمل وراء التغيرات الاجتماعية الظاهرة ، وكان يكتفى بذكر الأسباب المباشرة . وهو فى روايته للحوادث يكتفى كذلك بالتعويل على الإسناد ، دون أن يعرض النص نفسه على تفكيره الخاص ، ويزنه بميزانه ، ويخضعه لبعثه وتحليله ، وهو يصارحنا بذلك فى بساطة مستحبة فيقول فى مقدمة كتابه : « وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن اعتادى فى كل ما أحضرت ذكره فيه بما شرطت أنى راسمه فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذا كرها فيه ، والآثار التى أنا مسندها إلى روايتها فيه ، دون ما أدرك بحجج العقول ، وأستنبط بفكر النفوس ، إلا اليسير القليل منه ، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين ، وما هو كائن من أبناء الحداثين غير واصل إلى من لم يشاهد ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ، ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول ، والاستنباط بفكر النفوس ، فمهما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشعنه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهها فى الصحة ولا معنى فى الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا ، وأنا إنما أديننا ذلك على نحو ما أدى إلينا ، .

وهذه هى الطريقة التى انتقدها ابن خلدون فى مقدمته ، وحمل عليها ، وقال فى التنديد بها (١) : « إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى ،

(١) مقدمة ابن خلدون صفحة ٩ طبع المطبعة الشرقية بمصر .

ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق ، وكثيراً ما وقع للورخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ، لم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار ، فضلوها عن الحق وناهوا في بيداء الوهم والغلط ، ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات ، إذ هي مظنة الكذب ، ومطية الهذر ، ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد .

وقد أخذ ابن خلدون على الطبرى ذهابه إلى أن غزوات التباينة ملوك اليمن وجزيرة العرب قد امتدت إلى إفريقية والمغرب ، وقال إن هذه الأخبار بعيدة عن الصحة ، وعريقة في الوهم والغلط . وإنما أشبه بأحاديث القصص الموضوعة ، وذلك لأن ملك التباينة إنما كان بجزيرة العرب ، وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن .

والأسلوب الذى اتبعه مؤرخو العرب بوجه عام فى أكثر مؤلفاتهم التاريخية كان يضطرهم من بادئ الأمر إلى ممارسة نوع خاص من النقد التاريخى ، وذلك لأن التاريخ كان عندهم قائماً على الثقة بالشاهد الأول ، والاعتناء على صدق روايته ، وصحة إدراكه ، واستقامة أخلاقه ، وقد استلزم ذلك بذل مجهود ضخم فى تحرى سير أمثال هؤلاء الرجال الذين يصح الاعتماد على أقوالهم ، والأخذ برواياتهم . وكان على المؤرخ أن يشعر نفسه الاطمئنان إلى هؤلاء الرواة بعد التحقق والتثبت ، والظاهر أنه كان يجد أن الرواة ونقل الأخبار والحفاظ أهل للثقة والرجوع إلى أقوالهم متى عرفوا باستقامة الأخلاق ، وسلامة العقيدة ، والبعد عن الشبه والريب ، واشتهروا بالسمعة الطيبة وحسن السيرة ، أما نقد الرواية فى ذاتها وتحقيقها فقد قصروا فيه تقصيراً واضحاً . والنقد التاريخى بالمعنى الحديث لم

يعرفه الواقدي. ولا الطبري أو ابن قتيبة أو المسعودي ، ولم يقدر أهميته سوى ابن خلدون ، فهو الذي عرف مداه ، وأدرك طبيعته . والواقع أن الحاجة كانت ماسة إلى ممارسة هذا النوع من النقد التاريخي في القرن الثاني والقرن الثالث الهجريين ، فقد اختلط بروايات هذين القرنين التاريخية الكثير من الأوهام والخزعبلات والأكاذيب المصنوعة ، والأقاويل المزيفة ، وكان للعصديات المختلفة والأغراض السياسية والفرق المتنافرة أثر واضح في ترويج بعض الروايات ، وإذاعة طائفة من الشائعات ، واختلاق ضروب من الأكاذيب .

وقد كان الطبري رجلاً واسع المعرفة ، غزير العلم ، مستقل التفكير ، وإن أُرجم أن مثل هذا الرجل كان يغربل الروايات والأقاويل في صمت وسكون ، فينفى ما يداخله فيه الشك ، ويثبت ما يطمئن إليه ويراه جديراً بالثقة والتصديق ، فليس هو خابط عشواء ولا خاطب ليل ، فقد اعتمد على وثائق كثيرة وأحاديث وروايات وأخبار محكمة إلى حد ما ، وفيها ما يدل على دقة النظر وصدق الحكم ، وقد أجاد عرضها ، وأحسن تنسيقها ، حتى أغنت عن الرجوع إلى ما كان قبلها ، وأصبحت مادة يستمد منها المؤرخون ، ويعتمدون عليها ، ويسيرون في أضوائها .

وقد مهد الطبري الطريق لمن جاء بعده من كبار مؤرخي الإسلام مثل المسعودي صاحب مروج الذهب ، وابن مسكويه مؤلف كتاب تجارب الأمم ، وابن الأثير توضح كتاب الكامل ، وأبى الفداء كاتب كتاب المختصر في تاريخ البشر ، وابن خلدون نفسه مؤلف كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .

وأسلوب الطبري عربي أصيل يجمع بين السهولة والجزالة والوفاء بالغرض من أقرب سبيل ، وفي تصويره للحوادث وضوح وقوة . وقد مكنته سعة اطلاعه على الأدب وأشعار العرب من أن يرصع كتابه بمجموعة صالحة من القصائد البديعة ، والمقطوعات البارة ، والخطب البليغة ، والأقاويل الحكيمة ، وهو لا يعرضها في بذخ وإسراف ، وإنما يذكرها في مناسباتها ، وينزلها منازلها

اللائقة ، فيضىء بها جوانب التاريخ ، ويجلو غوامض الحوادث .

وقد عزا إليه ياقوت في معجم الأدباء بعض أبيات من الشعر ، منها قوله
في تصوير إبانته وذكر قناعته ووفائه .

إذا أعسرت لم أعلم رفيقى وأستغنى فيستغنى صديقى
حيائى حافظ لى ماء وجهى ورفقى فى مطالبتى رفيقى
ولو أنى سمحت ببذل وجهى لكنت إلى الغنى سهل الطريق

وأبرز ميزة فى هذه الأبيات هى ميزة الصدق ، فهكذا عاش الطبرى أبى
النفس ، عزوفاً عن الدنيا ، زاهداً ، متقشفاً ، متقللاً ، قانعاً بما كان يأتيه
من مال ضيعة ورثها عن أبيه . وقد وجه إليه مرة محمد بن عبيد الله الوزير
بدره فيها عشرة آلاف درهم وكتب معها رقعة وسأله أن يقبلها ، وقال للذى
حملها إليه : « إن قبلها وإلا فسلوه أن يفرقها فى أصحابه ممن يستحق » فلما
دخل عليه الرسول وأوصل إليه الرقعة امتنع من قبول الدرام ، ولما قال له
الرسول : « فرقها فى أصحابك على من يحتاج إليها ولا تردها » أجابه الطبرى
« هو أعرف منى إذا أراد ذلك » .

ومع طول معاناته للدراسات الجدية ومعالجته التأليف فى المسائل الصعبة
التي تستغرق الجهد ، وتعنى النفوس ، وترهق الأعصاب ، ظل محتفظاً بهدوء
النفس ، وصفاء خاطر ، وطيبة القلب . وقد ترك أثراً جميلاً فى نفوس عارفيه
وقلامذته ومنافسيه ، وقد وصفه أحد الآخذين عنه فقال : « كان أبو جعفر
ظريفاً فى ظاهره ، نظيفاً فى باطنه ، حسن العشرة لمجاسييه ، متفقداً لأحوال
أصحابه ، مهذباً فى جميع أحواله ، جميل الأدب فى ما كله وملبسه وما ينخسه
فى أحوال نفسه ، منبسطاً مع إخوانه ، حتى ربما داعبهم أحسن مداعبة »

وكان إذا أهدى إليه مهد هدية مما يمكن المكافأة عليه قبلها وكفأه ، وإن كانت مما لا يمكن المكافأة عليه ردها واعتذر إلى مهديها .

وكان صاحب هذه النفس النبيلة والروح السامية والهمة العالية رجلاً أسمر إلى الأدمة ، أعين نحيف الجسم مديد القامة ، لم يغب شيبه حتى وافته المنية يوم السبت لأربع بقين من شوال سنة ٣١٠ هجرية ، وقد فرغ من تصنيف كتابه في التاريخ سنة ٣٠٣ ووقفه على آخر سنة ٣٠٢ ، وربما كان الطبري والجاحظ وابن حزم الظاهري أغزر المؤلفين إنتاجاً في تاريخ الأدب العربي يرمته .

ابن عبد ربه أو المؤرخ الأديب

كتاب «العقد» الذي اشتهر باسم «العقد الفريد» للأديب الأندلسي أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه من الأصول الأدبية المعدودة، ومن المراجع التاريخية المأثورة، ويمتاز بغزارة مادته، وحسن تبويبه، وجودة اختياره، وقدم عمده. وتطالعك من وراء أخباره المنوعة ومختاراته المنتقاة شخصية مؤلفه الأديب المطبوع، والناقد البارع، والشاعر المجيد، والنفيع العالم المتمكن. وكتاب العقد من الكتب القلائل الجديرة بالعناية والخلقة بالدرس، وقد أحسنت لجنة التأليف والترجمة والنشر في محاولة لإخراج هذا الكتاب القيم إخراجاً علمياً مصححاً بجهد الطاقة حسن الطبع مقبول الصورة، فقد كانت الطباعات القديمة رديئة الطبع، محشوة بالأخطاء، تنفر من قراءته، وتصد عن الاستفادة منه. لردائها ودمايتها وامتلائها بالتحريف والتصحيف، ومن مقومات النهضة الأدبية الحقة دراسة الأصول الأدبية، واصطناع المنهج التاريخي من أقوم السبل، وأصح الأساليب في تلك الدراسة. والأمم التي لا تربط ماضيها بحاضرها تصبح من الأمم المقتلعة السطحية، وكتاب العقد في طليعة تلك الأصول الحافلة بالذخائر، ومن الطرف النفيسة التي خلفها السلف المجيد الصالح.

وقد ولد ابن عبد ربه مؤلف هذا الكتاب الجامع أو الموسوعة الأدبية التاريخية في قرطبة سنة ٢٤٦ هجرية، وكان جده الأعلى سالم من موالى الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل مؤسس الأسرة الأموية بالأندلس.

وأخبار ابن عبد ربه التي بين أيدينا قليلة، فلم يس عندنا بيان موجز أو مفصل عن العمل الذي كان يباشره، أو المنصب الذي كان يشغله، وقد مدح بعض أمراء الأندلس الذين عاصروه مثل الأمير محمد والمنذر وعبد الله، وله في مدح الناصر

طائفة من المدائح ، والظاهر أنه كان على شيء من الصلة الوثيقة به ، وقد أصيب في آخر حياته بالفالج ، وكانت وفاته في سنة ٣٢٨ هجرية ، وروى الضبي له ستة أبيات ذكر أنها آخر ما قاله من الشعر ، وقد أشار فيها إلى استقالة حياته ، وامتداد عمره ، وما أصابه في آخر أيامه من العلل والأسقام ، قال : —

كلائي لمأبى عاذلى كفانى طويت زمانى برهة وطوانى
بليت وأبلىنى الليالى وكرها وصرقان الأيام معتوران
ومالى لا أبلى لسبعين حجة وعشر أتت من بعدها ستان
فلا تسألونى عن تباريح علتى ودونكما منى الذى تريان
ولمئى بحول الله داج لفضله ولى من ضمان الله خير ضمان
ولست أبالى من تباريح علتى إذا كان عقلى باقياً ولسانى

ويمكننا أن نستخلص من النوادر والقصص التى تروى عن ابن عبد ربّه أنه كان من الأدباء الظرفاء ، والعلماء الذين يكرهون التزمت ، وينزعون إلى طلب المتعة ، واقتناص اللذة . وللبينة التى نشأ بها أثر واضح فى ذلك ، فقد كانت قرطبة حينذاك أعظم مدن الأندلس ، وكانت تضارع بغداد من وجوه كثيرة ، وكان كثيرون بين أهلها من الأثرياء الموسرين . وتكاثر الثروة يجعل أسباب الترف ودواعى المتعة وضروب اللهو موفورة ميسورة . وكان الغناء شائعاً فى قرطبة ، وكانت تغد إليها الجوارى والمغنيات من سائر الأقطار الإسلامية . وقد نهض زرياب بالغناء الأندلسى وطبعه بطابعه ، وكان أكثر المغنين والمغنيات من تلامذته وتلميذاته ، والآخذين عنه ، والمتأثرين بمذاهبه . وكان ابن عبد ربّه مشغولاً باستماع الغناء ، روى الفتح بن خاقان فى كتاب المطمح^(١) عن أبى محمد بن حزم أن ابن عبد ربّه مر بقصر من قصور قرطبة لبعض الرؤساء ، فسمع منه غناء أذهب

(١) مطمح الأنفس صفحة ٥٨ الطبعة المصرية .

ليه ، وألحِب قلبه ، فبينما هو واقف تحت القصر إذ رش بماء من أعاليه ، فاستدعى
رقعة وكتب إلى صاحب القصر بهذه الأبيات .

يامن يضمن بصوت الطائر الغرد ما كنت أحسب هذا الضن في أحد
لو أن أسمع أهل الأرض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضمن على سمعي ومن به صوتنا يحول مجال الروح في الجسد
لو كان زرياب حيا ثم أسمع له لذاب من حسد أو مات من كمد
أما النبئذ فإني است أشربه ولست آتيك إلا كسرتي بيدي

وذكر المقرئ في النفخ^(١) أن هذه الجارية كانت تسمى مصابيح ، وكانت
عند السكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل ، وقد أخذت الغناء عن زرياب نفسه ،
وروى أنها كانت في غاية الإحسان والذيل وطيب الصوت ، وأن سيدها عند قراءة
أبيات ابن عبد ربه خرج حافياً وأدخله إلى مجلسه فتمتع من سماعها .

وقد خصص ابن عبد ربه من عقده كتاباً للغناء واختلاف الناس فيه ، وهو
كتاب « الياقوتة الثانية » ، وذكر فيه كثيراً من الروايات التي احتج فيها الناس
بإجازة الغناء ، وذكر بعض الأحاديث التي تجهزه ، وقد استهل هذا الكتاب
بقوله « وكرهنا أن يكون كتابنا هذا بعد اشتماله على فنون الآداب والحكم
والنوادير والأمثال عطلاً من هذه الصناعة التي هي مراد السمع ، ومرتع النفس ،
وربيع القلب ، ومجال الهوى ، ومسلة الكسيب » وأنس الوحيد ، وزاد الراكب ،
لعظم موقع الصوت الحسن من القلب ، وأخذ به مجامع النفس » .

ويقول في موضع آخر من هذا الكتاب « وقد يتوصل بالألحان إلى خير
الدنيا والآخرة ، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق ، من اصطناع المعروف ،
وصلة الأرحام ، والذب عن الأعراض ، والتجاوز عن الذنوب ، وقد ييكي

الرجل بها على خطيئته ، ويرقق القلب من قسوته ، ويتذكر نعم المسكوت ويمثله
في ضميره . .

وهذا كلام يستوقف النظر ، ويستدعي الملاحظة ، ويمكننا أن نقبين منه
حسن تقدير الأندلسيين للغناء والموسيقى ، وإدراكهم لوظيفتها السامية ، وأثرها
في صقل النفوس ، وتهذيب العواطف ، وترقيق القلوب .

والظاهر أن ابن عبد ربه لم يقتصر على الاستمتاع بسمع الأصوات الجميلة ،
بل كان ولو عاكساً كذلك باجتلاء الوجوه الحسان أينما كانت ولمن كانت ، وربما يكون
قد أسرف في ذلك على نفسه ، فقد قال حينما آثر التوبة :

يارب غفرانك عن مذنب أسرف إلا أنه نادم

ولم يكتف ابن عبد ربه — على ما يظهر — بالاستمتاع بسمع الغناء ، واجتلاء
الوجوه الحسان ، بل أكثر من الشراب . والأرجح أنه ظل عاكفاً على الشراب
حتى تقدمت به السن ، قال في شيوخه :

أتلهو بين باطمية وزير وأنت من الهلاك على شفير
فيامن غره أمل طويل به يردى إلى أجل قصير
أنفرح والمنية كل يوم تريك مكان قبرك في القبور

والظاهر من الآيات التي قالها في الزهد والتوبة أنه لم يمل إلى الزهد ويشرع
في التوبة إلا حينما اعتلت صحته ، وضعفت بنيته ، وكلت حواسه ، فهي مثل توبة
أكثر الحسنيين الذين لا يعرفون الزهد أو التوبة بدافع من التقوى أو قوة الإرادة
ولنما يعرفونها حينما تضعف حواسهم ، وتخذلهم بنيتهم ، وهم في هذه الحالة
يكثرون من النظار بالورع ، والإفراط في الزهد والعبادة ، وفي الوقت نفسه
يكثرون من التحسر على أيام الشباب وعهود اللهو ، ومن أشعاره في ذكرى
الشباب قوله :

شعاني كيف صرت إلى نقاد وبدلت البياض من السواد
فراقك عرف الأحزان قلبي وفرق بين عيني والرقاد
زمان كان فيه الرشد غياً وكان الغي فيه من رشادى
فكم لى من غليل فيك خاف وكم لى من عويل فيك بادى

ويعترى الحسين حينما يقعد بهم عجز الشيخوخة والمهرم عن مباشرة اللذات والاستمتاع بالحياة نوع من التشاؤم ، فيرون أن لذات الحياة فانية ، ومتعها خدعة ، وأن أحزانها وهمومها باقية ، وأنها ترجح مسراتها ولذاتها ، وأن الحياة قصيرة المدى ، سريعة الكر ، ولا تخلف في النفس سوى اللوعة والأسى ، ولذا يميلون إلى ذم الدنيا ، وإظهار الزهد في نعيمها وطيباتها ، حتى يشتهب أمرهم بأمر العباد الناسكين ، والأولياء الزاهدين ، من ذلك قول ابن عبد ربه :

ألا إنما الدنيا غضارة أيسكة إذا اخضر منها جانب جف جانب
هى الدار ما الآمال إلا جشائع عليها ولا اللذات إلا مصائب
فكم أسخنتم بالأمس عينا قريرة وقرت عيوننا دمعها الآن ساكب
فلا تكتحل عينك منها بعبرة على ذاهب منها فإنك ذاهب

وقد أجاد ابن عبد ربه دراسة علوم عصره من تاريخ وشعر ونحو ولفه وفقه ودين ، وأثر هذه الدراسة العلمية المستوعبة الشاملة يتجلى في كل باب من أبواب كتابه ، وهذه الثقافة الكثيرة الجوانب أكسبته اعتدالا في التفكير ، وسعة في الرأي والنظر ، وتجاافت به عن الضيق والتعصب والتزمت ، وهو يعول في مراجعته على علماء المشاركة ، ويكثر من النقل عنهم ، وعمدته أمثال المبرد والأصمعي والمدائني وأبي عبيدة وابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم من الاخباريين والنحاة والمحدثين والفقهاء ، وقد لحظ ذلك صاحب بن عباد حينما أطلع على كتاب

العقد فقال فيه كلبته المشهورة « هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم ، وإنما هو يشتمل على أخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه . »

وقد كان ابن عبد ربه مولعا بالهجاء ، محبا للدعابة والفكاهة ، وقد ذكر لنا المقرئ في النفح (١) بعض ماحدث بينه وبين أبي محمد يحيى القلقاط الشاعر ، وقد كان القلقاط صديقا لابن عبد ربه ، ففسد ما بينهما بسبب أن ابن عبد ربه مر به يوما وكان في مشيه اضطراب فقال له القلقاط « أبا عمر ما علمت أنك آدر إلا اليوم لما رأيت مشيك » فقال له ابن عبد ربه « كذبتك عرسك أبا محمد ، فعز على القلقاط كلامه وقال له « أتعرض للحرم ؟ والله لأرينك كيف الهجاء ، ثم صنع فيه قصيدة أولها .

يا عرس أحمد إني مززع سفرا فودعني سرا من أبي عمرا
وتهاجيا بعد ذلك ، وكان القلقاط ياقبه بطلاس لأنه كان أطلس اللحية ، ويسمى كتاب العقد « حبل الثوم » .

وأثر ميل ابن عبد ربه إلى الهجاء والدعابة والفكاهة ظاهر في كتاب العقد ، ومن سخريته بالمبرد في كتابه قوله عنه « ما أحسبه لحقه هذا الاسم إلا لبرده » وهو بارع في فن الهجاء لأنه يحسن الوقوع على المساوىء ، ويصحبها في الغالب المضحك ، فيضطرنا إلى أن نشترك معه في الضحك والسخرية ، من ذلك قوله :
ما بال بابك محروسا ببواب يحميه من طارق يأتي ومنتاب
لا يحتجب وجهك المقنوت عن أحد فالملت يحجبه من غير حجاب
فاعزل عن الباب من قد ظل يحجبه فإن وجهك طلسم على الباب

(١) الجزء الرابع من النفح صفحة ٢٧٣ تحقيق الأستاذ محي الدين عبد الحميد .

وقد يمزج الهجاء بشكوى الزمن مثل قوله .

وأيام خلت من كل خير ودنيا قد تدرعها الكلاب
كلاب لو سألتهمو ترابا لقالوا عندنا انقطع التراب
وقال شاكي الشيب والحكام .

جار المشيب على رأسى فغيره لما رأى عندنا الحكم قد جاروا
وكان فى بعض الأحيان يفرط فى الإفداع ، ويسف فى الهجاء ، شأن الشعراء
الذين شغفوا بالهجو ، وكانت آداب عصرهم تسمح لهم بذلك .
ومن أشعاره المؤثرة قوله فى رثاء ولده :

واكبدا قد تقطعت كبدى وأحرقته لواعج الكمد
مامات حى لميت أسفا أعذر من والد على ولد
يارحمة الله جاورى جدثاً دفنت فيه حشاشتى ييدى
ونورى ظلة القبور على من لم يصل ظله إلى أحد
لا صبر لى بعده ولا جلد فجعت بالصبر فيه والجلد
بالوعة لا يزال لا عجبها يقدح فار الأسى على كبدى

وشعر ابن عبدربه مثل نثره يمتاز بعدوبة الألفاظ وسهولتها ، وحسن
اختيارها ، ووضوح المعنى ، والبعد عن التكلف ، وترك استعمال الغريب النافر ،
وليثار الجزالة والسلاسة . وفى بعض أشعاره تتغلب ثقافته الواسعة على عواطفه
ومشاعره فيعجى شعره غثا فائراً لأرواح فيه ولا حياة ، أو محاكاة للشعر القديم
خالية من التجديد والابتكار ، وقد روى الفتح بن خاقان فى المطمح أن بعضهم
أخبره أن الخطيب أبا الوليد بن عيال حج ، فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبى
واستشرف ، ورأى أن لقياء فائدة يكتسبها وحلة فخر لا يحتسبها ، فصار إليه

فوجده في مسجد عمرو بن العاص ، ففاوضه قليلا ، ثم قال (١) : أنشدني للمسيح
الأندلس ، يعنى ابن عبد ربه ، فأشده .

يا أولوا يسى العقول أنيقاً ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله درأ يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يامن تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رفيقا
فلما أكمل إنشادها استعادها منه ، وقال : يا ابن عبد ربه لقد تأتيتك العراق ،
حبوا .

ولكننى يخالجنى الشك فى صحة هذه الرواية ، وقد نقلها ياقوت فى معجمه دون
تعليق وكذلك فعل المقرئ فى النفع . وقد توفى ابن عبد ربه سنة ٣٢٨ هجرية ،
والمتنبى كان فى مصر بين سنة ٣٤٦ هجرية وسنة ٣٥٠ ، وقول المتنبى
« تأتيتك العراق حبوا » يشعر بأن ابن عبد ربه كان حيا حينذاك ولم يكن ثاويا
فى قبره ، وما أحسب المتنبى كان يقصد أن العراق يذهب حبوا لزيارة قبر ابن عبد ربه !
وفضلا عن ذلك فإننى لست واثقا من أن ذوق المتنبى الأدنى كان يسيغ مثل هذا
الشعر ، ويرضى عن طريقته ، ومهما يكن من الأمر فإن ابن عبد ربه كانت له شهرة
واسعة ومكانة عالية فى الأنندلس خاصة وسائر الأقطار الإسلامية عامة . ولما
أراد أبو على الحسن التيمى القيروانى أن يذكر تقصير أهل الأنندلس فى تخليد
أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم وذلك فى الرسالة التى بعث بها إلى
أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم أشار إلى ابن عبد ربه فقال (٢) : ليس بيننا
ويبتسكم غير روحة راكب أو رحلة قارب ، لو نفت من بلدكم مصدور لأسمع

(١) مطمح الأنفس صفحة ٥٩ ومعجم الأدباء الجزء الرابع صفحة ٢٢٢ وفتح الطيب الجزء .

التاسع صفحة ٢٦٢ .

(٢) النفع الجزء الرابع صفحة ١٥٣ .

عن بيلدنا في القبور ، فضلاً عن في الدور والقصور . وتلقوا قوله بالقبول كما تلقوا ديوان أحمد بن عبد ربه الذي سماه بالعقد ، على أنه يلحقه فيه بعض اللوم ، لا سيما إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده ، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه ، أكثر الحز وأخطأ المفصل ، وأطال الهز لسيف غير مقصّل ، وقعد به ماقعد بأصحابه من ترك ما يعنيهم وإغفال ما يهمهم ، ونرى من ذلك أن الأديب القيرواني حينما أراد أن يتقصّ الأندلسيين رأى أن ينال منهم بالتقليل من قيمة عمل رجل يعدّ مفخرة من مفاخرهم ، وحجة في أدبهم .

وقد نظم ابن عبد ربه أرجوزة تاريخية ضمنها انتصارات عبد الرحمن الناصر ، وهي أرجوزة مطولة تجاوزت أربعمائة بيت من الشعر ، وهي من قبيل شعر الملاحم في الأدب العربي . وقد ذكر فيها الغزوات تبعاً لتسلسل تاريخها مبتدئاً من سنة ٣٠٠ هجرية إلى سنة ٣٢٢ وهو يقول في تقديمها (١) : وهذه الأرجوزة التي ذكرت جميع مغازيه وما فتح الله عليه فيها في كل غزاة ، وقد استهلها بقوله

سبحان من لم تحوه أقطار ولم تكن تدركه الأبصار

ومن عنت لوجه الوجوه فماله ند ولا شبيهه

ويتنقل بعد التيسيح إلى مدح الناصر فيقول :

أقول في أيام خير الناس ومن تحلى بالندى والباس

ومن أباد الكفر والنفاقا وشرد الفتنة والشقاقا

ونحن في حنادس كالليل وفتنة مثل غشاء السيل

حتى تولى عابد الرحمن ذاك الأغر من بني مروان

وصبح الملك مع الهلال فاصبحا ندين في الجبال

واحتمل التقوى على جبينه والدين والدنيا على يمينه

قد أشرقت بنوره البلاد وانقطع التشغيب والفساد

ولهذه الأرجوزة قيمتها من الناحية التاريخية لما اشتملت عليه من ذكر الوقائع وتواريخ حدوثها وأماكنها وأسماء كثير من القواد والحصون ، والأرجوزة في مجموعها جيدة النظم ، حسنة السرد ، توخى ناظمها الدقة في ذكر الحوادث ، والظاهر أنه أراد بنظم هذه الأرجوزة مجازاة ابن المعتز في أرجوزته التاريخية التي ذكر فيها أعمال الخليفة المعتضد .

وفي كتاب العقد أخبار كثيرة ، وفوائد جمة ، وطرف ونوادير عن كبار رجال الإسلام سواء من الخلفاء والقواد والحكام أو من الحكماء والمتكلمين والشعراء والكتاب والمغنين ، وفيه كثير من المعلومات التاريخية ، والنصوص الأدبية ، وأخبار عن العرب في الجاهلية والإسلام ، وألوان معيشتهم ، وأساليب حياتهم . وقد جعله وجوده بالأندلس بعيداً عن نفوذ حكام الشرق ، وممكنه ذلك من أن يكون أقدر على الصراحة وأكثر حرية في إبداء الرأي ، ولكنه مع ذلك لم يستطع التغلب على أهوائه وميوله . وابن عبد ربه مؤرخ بارع ، واسع الإحاطة ، جيد السرد للأخبار والوقائع ، ولكن يلزم أن تتلقى أخباره ورواياته بشيء من التحفظ ، لأنه حذف ذكر الإسناد ، وبعض الأخبار التي رواها لا نعرف من أين استقها ، وهو يصارحنا بطريقته فيقول إنه عمد إلى بعض الأخبار فاختصرها أو اختار منها ما يلائم كتابه ، ويرضى ذوقه . وقد لاحظ نقاده أنه ينقل بعض الأخبار على علاتها دون غريزة أو تمييز ، ودون عرضها على محك النقد ووزنها بميزان التمسك الدقيق ، وقد كان هدف الرجل أدبياً قبل كل شيء . أى أنه كان يريد تسليمة القارى وممتاعه والترفيه عنه بالأخبار الموثقة ، والروايات المستجادة ، والأقوال البديعة ، والحكم والأمثال والأشعار . وقد أشار في المقدمة إلى ذلك فقال : وقد ألفت هذا الكتاب رتخبرت جواهره من متخير جواهر الأدب ، ومحصول جوامع البيان ، فكان جواهر الجواهر ولب اللباب ، وإنما فيه تأليف الأخبار ، وفضل الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش ، في صدر كل كتاب ،

وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور الحكماء والأدباء ، واختيار الكلام أصعب من تأليفه ، وقد قيل اختيار الرجل وافد عقله .

وربما لا يكون اختيار الكلام على وجه الإطلاق أصعب من تأليفه كما جاول أن يعتقد ابن عبد ربه ، ولكن الاختيار مهما يكن أمره دليل عقل المرء ، وعنوان ذوقه ، وقد أحسن ابن عبد ربه الاختيار في كتاب العقد ، فدل على سلامة ذوقه ، ورجاحة عقله ، وغزارة مادته ، وأصالة أدبه .

المسعودى أو المؤرخ الجغرافى

بين التاريخ والجغرافية علاقة صميمية ، ورابطة وثيقة ، جعلت بعض أكلفرين يذهبون إلى أن الفهم الصادق للتاريخ وتفسيره الصحيح لا يكونان إلا عن طريق البحوث الجغرافية ، وآمن بعض الناس وصدق بالجبرية الجغرافية وحسبها وحدها كافية لجلاء ما غمضت أسبابه واستسرت دوافعه من أحداث التاريخ وتطوراتها ، وقد عارض هذا رأى ونفذه وأظهر بطلانه المؤرخ المفكر توينبى^(١) ، وقد شغلت مشكلة علاقة الإنسان ببيئة اليونان القدامى ، وبدا لأفلاطون أن يصدر حكماً حاسماً فى الموضوع يلائم نزعتة المثالية فقال : إن البلاد لا تملك الناس ، وإنما الناس هم الذين يملكون البلاد^(٢) ، والواقع أن البيئة لم تسيطر قط على الإنسان سيطرة مطلقة ، ولكن الإنسان مع ذلك لم يستطع أن يتغلب على تأثيرها تغلباً تاماً ، وأوضح مكانة للجغرافية فى التاريخ أنها تدرس دراسة مستوعبة دقيقة علمية نزيهة بأساليبها الخاصة وطرائقها الفنية العلمية ، مجالات النشاط الإنسانى ومواقع الحوادث التاريخية ، وإبراز خصائص هذه المجالات وميزات هذه المواقع لا يعرض على أبصارنا اللون المحلى لهذه المجالات والمواقع خشب ، وإنما يرينا كذلك كيف تأثر بها النشاط الإنسانى والحوادث التاريخية ، وما يلاحظ فى عالم الأدب أن قول الروائيين الواقعيين مثل بلزاك وفلوبير وتولستوى وغيرهم يتحرون الدقة فى توصيف البيئة ورسم الأمكنة والمواقع التى تدور فيها حوادث رواياتهم وأقاصيصهم حتى يشعر القارئ بالعلاقة الأكيدة بين طبيعة المكان والحوادث المروية ، وكثيراً ما تشبه الجغرافية بالمسرح ويشبه التاريخ بالرواية

(١) راجع من صفحة ٥٥ إلى صفحة ٥٩ من مختصر كتابه « دراسة التاريخ »

• Study of History

(٢) نقل هذا الرأى عن أفلاطون البجاعة الفرد كيرشوف فى صفحة ٣ من كتابه

« الإنسان والأرض » Man and Earth

التمثيلية التي تمثل به ، وهو تشبيه تعوزه بعض الدقة ، وذلك لأن الرواية التمثيلية تصلح للتمثيل على مختلف المسارح في المناطق المتباينة ، ولكن روايات التاريخ لا تمثل سوى مرة واحدة ، وهى تتأثر فى أثناء تمثيلها إلى حد كبير بخصائص المسرح الذى يتفق تمثيلها به ، فرواية نابليون مثلاً فى إسبانيا أو روسيا أو مصر لا يمكن أن تتمثلها غير متأثرة بمسرح حوادثها فى إسبانيا وروسيا ومصر ، ولانزاع فى أن طبيعة البلاد الأسبانية أو السهوب الروسية أو الأراضى المصرية كان لها أثر واضح فى إخراج الرواية وتمثيلها .

ودراسة الجغرافية معناها دراسة عامل هام من العوامل الكثيرة التى تعمل فى تكوين التاريخ ونسج خيوطه ، والمؤرخ يحاول أن يصور أعمال الناس ويكشف عن دخائل الفكر البشرى ، وكلما أجاد الاستقصاء ، وأمعن فى تحرى الحق ومعرفة الواقع وجد نفسه مضطراً إلى الإفادة من جهود الكثيرين الذين يعملون فى مناطق أخرى قريبة من منطقة بحثه ، فهو فى حاجة إلى الإلمام بجهود الباحثين فى أصول السلالات والشعوب والأجناس ، والباحثين عن منشأ اللغات والعادات والأديان والمعتقدات ، وكذلك هو فى حاجة إلى الاطلاع على النتائج التى ينتهى إليها الباحثون فى طبائع الأمكنة والبيئات وما توالى عليها من تغيرات ، ومن الواضح أن المؤرخ يستطيع أن يعمق دراسته ، ويكمل تجاربه وخبرته بفهم الناحية الجغرافية لمشكلاته التاريخية ، لأن التفكير الإنسانى أو العمل الإنسانى لا ينشأ ويتكون فى الفراغ ، وإنما لا بد له من بيئة تؤثر فيه تأثيرها وتطبعه بطابعها .

ولقد ذهب بعض المفكرين إلى أن التاريخ يبدأ حيث ينتهى عمل الجغرافية لأن الجغرافية تتناول الحقائق الطبيعية ، ولكن هذا التصور للجغرافية يعتوره النقص ، لحقيقة أن الجغرافية تدرس البلاد والأقطار من مختلف نواحيها وتحاول أن تفهم علاقاتها بعضها ببعض ، تلك العلاقات المعقدة المتشابهة ، ويشمل ذلك بضرورة الحال دراسة الإنسان ، لأن الإنسان عامل فى الأرض لا يمكن تجاهله ،

فالتاريخ والجغرافية كلاهما في حاجة إلى الآخر . وقد كانت الجغرافية قديماً تعد المسكان ، وتسمى المسرح ، وتنفرد بذلك ، ولكن الإنسان استطاع بعد ذلك أن يكون له أثره في إعداد المسكان وتهيئة المسرح ، وكلما ارتقت حضارته ، وعظمت إمكانياته قوى أثره ، وزادت سيطرته على البيئة الطبيعية .

فالتاريخ في أكثر الأحيان يفيد من الجغرافية ، ويحاول أن يماشيها ، وهيرودوت نفسه الذي يعتبره اليونانيون أب التاريخ يلتقي فيه المؤرخ والجغرافي ، فقد كان رحالة كثير الأسفار ، وقد طاف في أقطار الأرض المعروفة في عهده . فزار بعد هجرته من مدينة هليكارناس التي ولد بها بلاد اليونان ، وزار مصر وجال في أنحائها ، وأغار وأنجد ، وزار بلاد الفينيقيين ، وزار بابل وما حولها ، وجاس خلال بلاد الفرس ، وطاف بسواحل آسيا الصغرى ، كما زار المستعمرات اليونانية في إيطاليا ، وقد وسعت هذه الزيارات آفاق تفكيره ، وصقلت عقله ، وأمدته بمعلومات وافرة ، ومكنته من الإلمام بأشياء كثيرة ، ومشاهدات جمة ، وأطلعته على مصادر مختلفة للتاريخ ، ويسرت له استماع أخبار الرواة وقراءة الآثار المكتوبة وغير المكتوبة ، وجعلت كتابه شائعاً متبعاً لا يملئه القراء ، ويتذوقونه على اختلاف ثقافتهم ، وتباين مداركهم وملكاتهم .

وفي طليعة مؤرخي الإسلام الذين يشبهون هيرودوت في الجمع بين التاريخ والجغرافية المؤرخ الشهير على بن الحسين المعروف بالمسعودي ، فهو مؤرخ وأخباري من الطراز الأول ، وهو في الوقت نفسه جغرافي راسخ القسّم على الكعب ، وصاحب أسفار بعيدة ، وجواب أقطار نائية قاصية ، وقد سبق المسعودي بعض مؤرخي الإسلام في الجمع بين معرفة التاريخ والتمكن من الجغرافية مثل اليعقوبي الذي ألف كتابه المشهور في التاريخ العام وألف كذلك كتاب البلدان ، وقد جمع فيه ما عرفه بنفسه من أحوال البلدان في عصره لأنه عانى الأسفار من صغره ، وكان كلما رأى رجلاً من تلك البلدان بالشرق والمغرب سأله عن وطنه وعصره وأحوال أهله وأجناسهم وعاداتهم في الماء كل والمشرق ، وأبعاد البلاد

ومبالغ الخراج وأخبار الفتح ، وكان يدون ما وصل إليه حتى ألف كتاب البلدان ، ومثل أبي زيد البلخي صاحب كتاب البلد والتاريخ ، وكتاب د صور الأقاليم ، وكان أكثر هؤلاء المؤرخين الجغرافيين يؤلفون كتباً في التاريخ وكتباً أخرى في الجغرافيسة ، ولكن ميزة المسعودي أن الجغرافي منه يصاحب على الدوام المؤرخ ، فهو ينظر الأمور بعين المؤرخ ويتأملها في الوقت نفسه بلواحظ الجغرافي ، وهذه الخصلة هي التي تؤكد الشبه بينه وبين هيرودوت بوجه خاص ، وهي ماثلة في الكتابين اللذين وصلا إلينا من مؤلفاته الكثيرة المفقودة ، وهما د مروج الذهب ، و د التنبيه والإشراف .

والمسعودي من أقدر مؤلفي القرن الرابع الهجري ، ومن أغزرهم مادة ، وقد قال عنه محمد بن إسحاق النديم في الفهرست إنه من أهل المغرب ، والظاهر أنه قد أخطأ في ذلك ، فقد ذكر المسعودي نفسه في الجزء الثاني من كتابه مروج الذهب ما نصه (١) وأوسط الأقاليم الإقليم الذي ولدنا به ، وإن كانت الأيام قد أنأت بيننا وبينه ، وساحقت مسافتنا عنه ، وولدت في قلوبنا الحنين إليه إذ كان وطننا ومقطنا ، وهو إقليم بابل ، وقد كان هذا الإقليم عند ملوك الفرس جليلا ، وقدره عظيما ، وكانت عنايتهم إليه مصروفة ، وكانوا يشتون بالعراق وأكثرهم يصيفون بالجبال ، وذلك لما خص به هذا الإقليم من كثرة مرافقه ، واعتدال أرضه ، ونضارة عيشه ، ومادة الوافدين إليه ، وهما دجلة والفرات ، وعموم الأمن فيه ، وبعد الخوف عنه ، وتوسطه الأقاليم السبعة ، وقد كانت الاوائل تشبهه في العالم بالقلب من الجسد ، لأن أرضه من إقليم بابل الذي تشبهت الآراء عن أهله بحكمة الأمور كما يقع ذلك عن القلب ، وبذلك اعتدلت ألوان أهله واقدرت أجسامهم ، فسلوا من شقرة الروم والصقالبة ، وسواد الحبشة ، وغلظ البربر ومن جفا من الأمم ، واجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار ،

(١) راجع صفحة ٦٥ من الجزء الثاني من كتاب مروج الذهب (الطبعة الثانية) بتحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد .

وكما اعتدلوا في الجبل ، كذلك لطفوا في الفطنة ، والنسك بمحاسن الأمور ، وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام ، ويمز على ما أصارتني إليه الأقدار من فراق هذا المصر الذي عن بقعته فصلنا ، وفي قاعته تجمعنا ، لسكنه الزمن الذي من شيمته التشتيت ، والدهر الذي من شروطه الإبانة ، ولقد أحسن أبو دلف العجلي حيث يقول :

أيانسكة الدهر التي طوحت بنا أيادي سبأ في شرقها والمغارب
قنى بالتي نهوى فقد طرت بالتي إليها تناهت راجعات المصائب
وقد ذكر الحكماء — فيما خرجنا إليه من هذا المعنى — أن من علامة وفاء المرء ودوام عهده حنينه إلى إخوانه ، وشوقه إلى أوطانه ، وبكائه على ما مضى من زمانه ، وأن من علامة الرشد أن تكون النفوس إلى مولدها مشتاقة ، وإلى مسقط رأسها تواقفة ، وللإلف والعسادة قطع الرجل نفسه أصله وطنه ، وقال ابن الزبير : ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم ، وقال بعض حكماء العرب : عمر الله البلدان بحب الأوطان ، وقالت الهند : حرمة بلدك عليك كحرمة والديك ، لأن غذاءك منهما ، وغذاءهما منه ، وقال آخر : أولى البلدان بصبايتك بلد رضعت مائه ، وطعمت غذاءه ، وقال آخر : ميلك إلى موضع مولدك من كرم محتسبك ، وقال بقراط : يداوى كل عليل بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تتطلع إلى هوائها ، وتنزع إلى غذائها ، وقال أفلاطون : غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها ، وقال جالينوس : يتروح العليل بنسيم أرضه كما تنبت الحبة ببيل الأرض .

وقد أعاد المسعودي هذه النعمة ، وضرب على هذا الوتر الحساس في كتاب « التنبيه والإشراف » فقال حينما تحدث عن العراق (١) والصقع الذي مدينة السلام منه أفضل مواضع الأرض جميعاً في الطيب والغذاء ، وذلك أن أطيب

(١) كتاب التنبيه والإشراف تصحيح الأستاذ عبدالله اسماعيل الصاوي صفحة ٣٧ .

خيرات الدنيا بعد الأمن والعافية والعز والرئاسة صلاح الماء والهواء ، ثم أفضل أنهار العالم دجلة والفرات ، وإن نازع في ذلك أهل مصر وفضلوا نيلهم ، وأطيب مواضع العالم في كل الأزمنة عند قياس بعضها إلى بعض وقياس بعض البلدان إلى بعض مواضع اجتماع دجلة والفرات ، وذلك أن بعض المواضع يطيب صيفه ، ويفسد شتاؤه فساداً يمتنع فيه عن المكاسب المهنية ، والمطالب الصناعية ، لشدة برده ، ودوام سقوط ثلجه ، ومنها ما يطيب شتاؤه ويفسد صيفه ، حتى يشغل الحر والومد والبق والهوام عن تخشين الزي باللباس والتصرف في المهن والصناعات ، ويعز علينا بما دفعنا إليه من مفارقة هذا المصير الذي به مولدنا وفيه منشؤنا ، فنأت الأيام بيننا وبينه ، وساحقت مسافاتنا عنه ، فبعدت الدار ، وتراخى المزار ، لسكنه الزمن الذي من شأنه التشييت ، والدهر الذي من شرطه الإفاقة ، ولولا الشوق إلى الوطن والحنين إلى المنشأ لم نذكر ما ذكرناه من هذه المعاني ،

وواضح من ذلك أنه عراقى الأصل والنشأة ، وقد ذكر ياقوت في معجمه أنه من ولد الصحابي عبد الله بن مسعود^(١) ، وقد جاء مصر ، ورحل في طلب العلم إلى أقاصي البلاد ، فطاف في فارس وكرمان سنة ٣٠٩ حتى استقر في اصطخر ، وفي السنة التالية قصد الهند وزار مدينة ملتان والمنصورة ، ثم عطف إلى كنباية فصيمور وانتقل إلى سرنديب (سيلان) ومن هناك ركب البحر إلى بلاد الصين ، وجال بعد ذلك في المحيط الهندي وزار زنجبار وسواحل إفريقيا الشرقية والسودان ، ثم قام برحلات في بحر قزوين وآسيا الصغرى والشام والعراق وبلاد العرب الجنوبية ومصر ، وقد تحدث في مروج الذهب مشيراً إلى رحلاته البحرية فقال^(٢) : « وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلم واليمن ، وأصابني

(١) معجم الأدباء جزء ١٣ صفحة ٩٠ .

(٢) مروج الذهب الجزء الأول صفحة ١٠٨ و ١٠٩ تحقيق الأستاذ محي الدين عبد الحميد .

فيها من الأهوال مالا أحصيه كثرة فلم أشاهد أهول من بحر الزنج وفيه السمك المعروف بأقال طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع إلى خمسمائة ذراع بالذراع العمرية ، وهى ذراع ذلك البحر ، والأغلب من هذا السمك طوله مائة ذراع ، وربما يز البحر فيظهر شيئاً من جناحه فيسكون كالقلع العظيم ، وهو الشراع ، وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء في الجسوأكثر من تمر السهم ، والمراكب تفزع منه في الليل والنهار ، وتضرب له بالدبابد والخشب لينفر من ذلك ، ويحشر بأجنحته وذنبه السمك إلى فمه ، وقد فغرفاه ، وذلك السمك يهوى إلى جوفه جرياً ، فإذا بغت هذه السمكة بعث الله عليها سمكة نحو الذراع تدعى اللشك فتلتصق بأصل ذنبها فلا يكون لها منها خلاص ، فطلب قعر البحر ، وتضرب بنفسها حتى تموت ، فتطفو فوق الماء فتسكون كالجبل العظيم . وربما تلتصق هذه السمكة المعروفة باللشك بالمراكب فلا يدنو الأقال مع عظمتها من المركب ، ويهرب إذ رأى السمكة الصغيرة إذ كانت آفة له وقاتلة ، ويخامر شك في تصديق القارىء لهذا الكلام فيقول : وفي بحر الزنج أنواع من السمك بصور شتى ، ولولا أن النفوس تنسك مالم تعرفه وتدفع مالم تألفه لأخبرنا عن عجائب هذه البحار ، وما فيها من الحيتان والدواب وغير ذلك من عجائب المياه والجماد .

وقد طاف المسعودى في البحر الهندى إلى مدغشقر ، وعاد إلى عمان ، ورحل
رحلة أخرى سنة ٣١٤ إلى ماوراء أذربيجان وجرجان ثم إلى الشام وفلسطين ،
وفي سنة ٣٣٢ زار أنطاكية والثغور الشامية إلى دمشق ، واستقر أخيراً بمصر ،
وترك الغسائط سنة ٣٤٥ هجرية ، وتوفى في السنة التالية ، وقد مكنته هذه
الرحلات البعيدة والأسفار المتتالية من إجادة البحث والاستقصاء ، وجمع
المعلومات التاريخية من مظاهرها ، والحقائق الجغرافية من مصادرها الأصلية ، وكان
كثيراً ما يخطر بفسره أن الأسفار قد تكون عاقته عن الاتطلاع التام للحصول
وإجادة التأليف ولذلك يقول في مقدمة كتابه مروج الذهب (١) : « على أنا نعتذر

(١) الجزء الأول من مروج الذهب تحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد صفحة ١٠ .

من تقصير وإن كان ، وتنصل من إغفال إن عرض ، لما قد شاب خواطرنا وغمر
قلوبنا من تقاذف الأسفار ، وقطع القفار ، تارة على متن البحر ، وتارة على ظهر
البر ، مستعجلين بدائع الأمم بالمشاهدة ، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة ، كقطعنا
بلاد السند والزنج والصنف والصين والزابج ، ونقمحنا الشرق والغرب ، فتارة
بأقصى خراسان ، وتارة بوسائط إرمينية وأذربيجان والران والبيلقان ، وطوراً
بالعراق ، وطوراً بالشام ، فسيرى في الآفاق ، سرى الشمس في الإشراق ،
كما قال بعضهم :

تيمم أقطار البلاد فتارة لدى شرقها الأقصى وطوراً إلى الغرب
سرى الشمس لا ينفك تقذفه النوى إلى أفق ناء يقصر بالركب
ويقول في موضع آخر من المقدمة (١) : لكل إقليم عجائب يقتصر على عليها
أهله ، وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نبي إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسم
عمره على قطع الأقطار ، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار ، واستخراج كل دقيق
من معدنه ، وإثارة كل نفيس من مكمنه .

ويكرر هذا الاعتذار في مقدمة كتاب الإشراف والتنبيه قائلاً (٢) : وعلى
أنا نعتذر من سهو إن عرض في تصنيفنا عما لا يسلم منه من لحقة غفلة الإنسانية ،
وسهوة البشرية ، ثم ما دفعنا إليه من طول الغربة وبعد الدار ، وتواتر الأسفار
طوراً مشرقين وطوراً مغربين كما قال أبو تمام .

خليفة الخضر من يربح على وطن في بلدة فظهور العيس أوطاني
بالشام قومي وبغداد الهوى وأنا بالرقتين وبالفسطاط إخواني
وكقوله أيضاً .

فغربت حتى لم أجده ذكر مشرق وشرقت حتى قد نسيت المغاربا

(١) الجزء الأول من مروج الذهب تحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد صفحة ١٢ .

(٢) التنبيه والإشراف تحقيق الأستاذ عبد الله اسماعيل الصاوى صفحة ٦ .

خطوب إذا لقيتهن رددنى جريماً كأنى قد لقيت كتاباً ،
وكان المسعودى على طول معاناته الأسفار كثير التأليف ، واسع الاطلاع
منوعه ، ولذا استطاع أن يكتب فى موضوعات شتى ويحيط بها ، والكتابان
اللذان وصلا إلينا من مؤلفاته السكثيرة يدلان على ترمى حدود معرفته ، وتعدد
جوانب تفكيره ، فهو يبدو فيهما باحثاً جغرافياً ، ومؤرخاً أخبارياً ، ومتكلماً
جدلياً ، ملماً بالعقائد المختلفة والمذاهب المتباينة ، وفقهاً محدثاً وأديباً بارعاً ،
كثير المحفوظ ، حسن الاختيار ، طريف النوادر شائق الأخبار ، وهو على
غزارة معلوماته وكثرة مشاهداته خفيف الظل ، جذاب الأسلوب ، ممتعاً مبدعاً ،
حسن السرد ، واضح الحجج ، مشرق العبارة ، ليس فى أسلوبه السهل المتدفق
الجارى غموض ولا خفاء ولا إملال ، بل فيه لمعان وإشراق ، وسلاسة وبلاغة
لم يشنها تكلف ، ولم يفسدها ادعاء وتعمل .

والظاهر أن أوفى مؤلفاته السكثيرة هو كتاب « أخبار الزمان ومن أباده
الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة » فهو كثير الإشارة
إليه والإحالة عليه ، ولكنه من أعلاقه المفقودة ، وذخائره الضائعة ، على أن
كتابه الحافل المسمى « مروج الذهب ومعادن الجوهر » يكفى فى الدلالة على فضله
وتمكّنه وسعة ذرعه .

وقد أوقف الفصول الأولى من كتابه هذا على ذكر المبدأ أو الخليفة وذره
البرية من آدم إلى إبراهيم ، ثم تناول الفترة بين المسيح والنبي محمد ، وأتبع ذلك
بفصل عن الهند ومدد ممالكها وسيرها وآرائها فى العبادة ، ويتلو ذلك فصول
عن الجغرافية الطبيعية والتاريخية تحدث فيها عن الأرض والبحار ومبادئ الآثار
والجبال والأقاليم السبعة وما والاها من الكواكب ، وكثيراً ما يستطرد فى هذه
الفصول ويذكر بعض الأفاصيص العجيبة والأخبار المستغربة ، وقد اختص
الصين بفصل من فصوله كتابه فيه تقدير لدياناتها وأخلاق أهلها وسياستهم ،

وتسلكم بعد ذلك عن أخبار البحار وما حولها من العجائب والأمم ومراتب الملوك وتناول في فصول تالية تاريخ ملوك السريانيين وملوك الموصل ونيذوى والكلدانيين والفرس الأولى ثم ملوك الطوائف الأشعانيين ثم ملوك الساسانية ، وانتقل بعد ذلك إلى أخبار اليونانيين وحروب الإسكندر وذكر الدولة الرومانية ، وقد أفرد لها ثلاثة فصول ، الفصل الأول عن تاريخها قبل اعترافها بالديانة المسيحية ، والفصل الثاني عن أباطرة بيزانطة السابقين لظهور الإسلام ، والفصل الثالث عن الأباطرة الذين حكموا بعد ظهور الإسلام حتى الوقت الذي ألف فيه كتابه ، وهو سنة ٣٣٢ هجرية ، وتحدث في الفصول التالية عن مصر ونيلها وأخبار الإسكندرية ، ثم عن السودان وأنسابهم والصقالية ومساكنهم والإفرنجية والجلالقة ، ثم اليمن وأنسابها وملوك الحيرة وملوك الشام وديانات العرب وأساطيرها وأخبار الكهان ، والبيوت المقدسة عند الهند واليونان والصقالية والمجوس ، ثم تاريخ النبي محمد ونشأة الإسلام والخلفاء الراشدين والدولة الأموية والدولة العباسية حتى خلافة المطيع ، وقد انتهى من كتابه سنة ست وثلاثين وثلثمائة هجرية ، أي أن تأليف هذا الكتاب الجامع القيم استغرق أربع سنوات وقد وسمه بكتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، « لنفاسة ما حواه ، وعظم خطر ما امتولى عليه ، كما يقول المؤلف في مقدمته .

ويمكن أن نستخلص من ذلك كله أن المسعودي قد جمع بين دفتي كتابه القيم معلومات ضخمة ، وأخباراً كثيرة ، ومشاهدات عدة ، ولكنه لم يظهر براعة ممتازة في تنسيق هذه المعلومات ، كانت تنقصه الحاسة الفنية التي تمكنه من أن يخرج من هذه المعلومات المتناثرة والحقائق المتكاثرة كلا حياً متجاوب الأجزاء متناسق الأوضاع ، وكان على ما يظهر سريع التصديق يعوزه قليل من الشك ويقظة الملكة الناقدة ، وقد جعله ذلك يستهدف لثقتات ابن خلدون اللاذعة وملاحظاته النافذة في مقدمته . ويرغم ما بتأليف المسعودي من عيوب وما في فنه من نقص فإنه مع ذلك من مؤرخي الإسلام الأفاضل المعدودين الذين نفَعُوا بعلمهم الغزير ، وخبرتهم الواسعة ، والذين من حقهم أن نمر بذكرهم مرددين قول الشاعر :

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم بعد الممات جمال الكتب والسير

أبو حيان التوحيدى وابن حيان الاندلسى

أو المؤرخان السكاتبان

من أعلام الميان العربى وكبار كتابه وأوفرهم حظاً من البلاغة والإجادة وإحراز قصب السبق كاتبان كبيران يمتاز أسلوبهما بالقوة والجزالة والطرافة ، وتمتاز شخصيتاهما فى التأليف بالبروز والوضوح وأوحادية النهج واستقلال التفكير ، وهذان السكاتبان على بعد ما بينهما من تنأى الديار واختلاف الأوطان يتفقان فى أشياء ، ويختلفان فى أشياء أخرى ، وقد كان أولهما وأقدمهما عهداً كاتباً من كتاب الطراز الأول فى الأدب العربى ، وخليفة الجاحظ فى سعة المعرفة وتعدد ألوان الثقافة ، وامتلاك ناصية البيان ، وامتداد النفس فى الكتابة ، وربما كانت تنقصه فكاكة الجاحظ ومرحه وخفة روحه ، ولكنه ربما كان يمتاز عنه كذلك بأنه يتناول المسائل تناولاً جدياً ، ويكتب عن عقيدة وصدق سريرة ، فهو لا يريد أن يظهر براعته وألمعيته فى القدرة على إثبات الشئ ونفيه ، أو ذمه وحده ، والتلاعب بعقول قرائه ، والعبث بأفهامهم ، وإنما يستغل بلاغته وقوة بياته فى عرض وجهة نظره ، والمصارحة بما يعتقده حقاً ، وكان الثانى مؤرخاً من المؤرخين النواذر الممتازين يكاد لا يشق له غبار فى براعة السرد ، وقوة التصوير ، ولحولة التعبير ، مع دقة الوصف وأصالة الأسلوب ، وتقارب الاسم الذى اشتهر به هذان السكاتبان كثيراً ما أدى إلى الخلط بينهما ونسبة ما كتبه أحدهما إلى الآخر ، والعجيب أن الوقوع فى هذا الخطأ لم يكن مقصوراً على القراء العاديين والمتأدبين غير المتخصصين ، وإنما قد شمل بعض الواقفين على تاريخ الأدب ، المتعمقين فى معرفة السكتب ومؤلفيها ، ومن هؤلاء العلامة التركى الحجة المعروف د حاجى خليفة ، فقد عزا فى كتابه المشهور د كشف الظنون ، كتاب المتين الذى

ألفه ابن حيان الأندلسى إلى أبى حيان التوحيدي بعد أن حرف اسمه وأصبح كتاب المبين .

وهذان الكاتبان وهما على بن محمد الذى عرف فى تاريخ الأدب باسم « أبى حيان التوحيدي » وحيان بن خلف الذى اشتهر فى التاريخ باسم « ابن حيان » . وكان أبو حيان هــذا كاتباً فلسفى النزعة ، دقيق التفكير ، واسع المعرفة ، جم الإحاطة ، ولد على الأرجح فى أوائل العقد الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وقد وردت بعض عبارات فى كلام ياقوت عنه فى معجم الأدباء ترجح أنه فارسى الأصل مثل قوله عنه إنه « (١) عمدة لبني ساسان » وقوله فى موضع آخر (٢) « قرأت فى كتاب البصائر لأبى حيان الفارسمى » وذهب الأستاذ عبد الرزاق محي الدين فى كتابه القيم عنه إلى أن الأدنى إلى القبول هو أنه من أصل عربى ، وأقام ترجمحه على اعتبارين هامين ، وهما إطنابه فى مدح العرب وتفضيلهم على الفرس فى الجاهلية والإسلام (٣) وعدم معرفته باللغة الفارسية ، ووصفه بأنه عمدة لبني ساسان ليست قاطعة كذلك فى الدلالة على فارسيته فربما كان المقصود بها هنا أنه من أهل الكندية وكانت تطلق عليهم لفظ الساسانية .

والظاهر أن المعلومات الراهنة عن أبى حيان لا تمكن من الفصل فى هذا الموضوع ، ولا يعرف كذلك على وجه التحديد البلد الذى نشأ به ، فياقوت يقول عنه « إنه شيرازى الأصل » وقيل نيسابورى ، وقيل لأنه واسطى ، وهما يكتن من الأمر فإنه قد تلقى علومه على شيوخ بغداد والبصرة ، وتعمق فى دراسة جميع علوم عصره من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام ، ولكنه على فضله وجلالة خطره وسمو ملكاته وتمكنه عاش بائساً يائساً طريداً مشرداً . لا يستقر به المقام فى بلد من البلاد ولا يغميه أحد من الرؤساء

(١) معجم الأدباء الجزء ١٥ صفحة ٥ .

(٢) معجم الأدباء الجزء ٣ صفحة ٧٧ .

(٣) راجع كتاب الإمتاع والمؤانسة جزء أول من صفحة ٧٠ إلى صفحة ٩٦ .

والأعيان ظل رعايته ، أو يشمله بعطفه ، وقد اتصل بالوزيرين الأدبيين ابى الفتح ابن العميد والصاحب بن عباد فلم يحكما ، ولم يفز منهما بطائل ، وعاد بصفقة المغبون ، واتصل بهما بالوزير الأديب ابن سعدان ، وكان رجلاً واسع الاطلاع على جانب كبير من الفضل ، وقد أعجب بأبى حيان وأطرى عليه ، وأثنى على أدبه ، ولكن هذه العلاقة مع ذلك لم تجدد عليه ، وهم كما قال عن نفسه « الجار القديم ، والعبد الشاكر » ، والصاحب المخبور ، وظل وهو فى جواره « يحمل بين جنبيه قلباً مغرور الرجاء ، منزور العزاء » حتى قتل الوزير واضطر إلى الهرب والاختفاء .

ويمكن أن نستخلص من كتب أبى حيان التى بأيدينا وأحاديثه عن نفسه وعلاقاته بأعيان عصره ووصفه للذين اتصل بهم أنه لم يكن يتخلو من جفاء طبع ، وخشونة جانب ، وفرط شعور بالنفس ، ولا يمكن أن نبرئه من الملق — بل ومن الإسراف فيه فى بعض الأحيان — وظروف حياته القاسية تجعلنا نبسط له العذر ، ولكنه مع ذلك لم يكن يحسن فيه إصابة الهدف ، ومعرفة من أين تؤكل الكتف ، والمحاورات التى كانت تدور بينه وبين الصاحب تبين لنا بوضوح أن أبى حيان أخطأ السبيل إلى مسارب نفس الصاحب ، ولست أحب أن أظلم أبى حيان فألقى التبعة كلها عليه ، فالظاهر أن الصاحب على جاهه وشهرته وقوة نفوذه وسطوته كان بنفس على أبى حيان أسلوبه البليغ ، وبمائه المشرق ، قال له مرة « من أين لك هذا الكلام المفوف المشوف الذى تكتب به إلى فى الوقت بعد الوقت » ثم أدركه غروره واعتزازه بنفسه فشفع ذلك بقوله لأبى حيان « كلامى فى السماء وكلامك فى السباد » وقد روى لنا أبو حيان جانباً مما وقع بينه وبين الصاحب ، ونحن من غير شك نسمع القضية من جانب واحد وهو جانب أبى حيان وحسب روايته ، ولكن منافسة الكتاب بعضهم لبعض قديمة العهد ، والتحاسد داء قديم من الصعب أن يبرأ منه إنسان ، ولم تكن أخلاق الصاحب فى هذه اللاحية فرق مستوى الشبهات والظنون ، وتحامله على المتننى فى رسالته المشهورة الموسومة « بمساوى المتننى » تجعلنى أعتقد أن الإنصاف وسلامة التقدير

والثغلب على الأحقاد لم تكن من طبيعة هذا الرجل المحب للشهرة المطبوع على الإثرة ، وقد كان في سلوكه صاحب في بعض المواقف وتصرفه على فضله وأدبه وسعة علمه وجاهه جانب من الرقاعة والادعاء والميل إلى التفتيح والتفريق لا يمكن أن يسيغه ويصبر عليه رجل عصبي المزاج ناقد للرجال ميال بطبعه إلى تصيد المعاييب والوقوف على المتالب حاقداً على البشر مثل أبي حيان التوحيدي ، وربما كان لحملته على الوزيرين أبي الفتح بن العميد والصاحب بن عباد أثر فيما أصابه من الخمول وإهمال الناس لأمره ، فقد كان لهما في عصرهما نفوذ واسع ، وجاء عريض ، وسلطان مكين ، وقد اضطره ضيق الحال وسوء المسال في أواخر أيامه وقيل غروب شمسهِ إلى أن يحرق كتبه غمماً وحزناً ويأساً وكهداً ، لا اعتقاده أن الناس قد جهدوا عليه ، وأنكروا فضله ، وعلى ما كان في خلق هذا الكاتب التقدير القليل النظير والمؤلف اللامع البارِع من شذوذ والتواء وتجهّم ونفاد فإن أهل عصره مع ذلك جديرون باللوم لأنهم أضاعوا مثله ، وأساءوا إليه ، ولم يرعوا له حرمة نبوغه وامتيازهِ ، على أن الأدب الذي لم يفد أبا حيان قد أفاد منه وأثرى ، وكتاباه المطبوعان ، وهما كتاب الإمتاع والمؤانسة وكتاب المقابسات من أنفس الكتب في المكتبة العربية ومن الأعلام النادرة الثمينة .

وقد فطن أبو حيان إلى عامل هام في كتابة السير ، وهو عامل النزاهة والابتعاد جهد الطاقة عن بواعث الحب الشديد والتعصب الأعمى أو السكراهة الصماء والتحامل الظالم ، سأله الوزير ابن سعدان عن ابن عباد قائلاً (١) « إنى أريد أن أسألك عن ابن عباد فقد انتجعته وخبرته وحضرت مجلسه ، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته ، وعن علمه وبلاغته ، وغالب ما هو عليه ومغلوب ما لديه ، فما أظن أنى أجده مثلك في الخبر عنه ، والوصف له ، على أنى قد شاهدته بهمدان لما وافى ، ولكنى لم أعجمه لأن اللبث كان قليلاً ، والشغل كان عظيماً ، والعائق كان واقفاً » .

(١) الإمتاع والمؤانسة الجزء الأول من صفحة ٥٣ إلى صفحة ٦٠ .

فأجابه أبو حيان « إني رجل مظلوم من جهته ، وعاتب عليه في معاملتي ،
وشديد الغيظ لحرمانى ، وإن وصفته أرييت متتصفاً ، وانتصفت منه مسرفاً ،
فلو كنت معتدل الحال بين الرضا والغضب ، أو عارياً منهما جملة ، كان الوصف
أصدق والصدق بى أخلق » .

ولكن الوزير ألح عليه فى ذلك ، فقدم لنا أبو حيان صورة للصاحب أقرب
إلى الذم ولحسنها مع ذلك تدل على براعة فنه فى وصف الشخصيات وتأليف
السير وقدره ليست عادية ، قال :

« إن الرجل كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد تنف من كل
أدب خفيف أشياء ، وأخذ من كل فن أطرافاً ، والغالب عليه كلام المتكلمين
المعتزلة ، وكتابته مهجنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب ، وهو شديد
التعصب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالمهندسة والطب والتنجيم
والموسيقى والمنطق والعدد ، وليس عنده بالجزء الإلهى خبرة ، ولاله فيه عين
ولا أثر ، وهو حسن القيام بالعروض والقوافى ، ويقول الشعر ، وليس
بذاك ، وفى بديته غزارة ، وأما رويته نغارة ، وطالعه الجوزاء ، والشعرى
قريبة منه ، ويتشيع لمذهب أبى حنيفة ومقالة الزيدية ، ولا يرجع إلى الرقة
والرافة والرحمة ، والناس كلهم يحجمون عنه لجرأته وسلطته واقتداره وبساطته ،
شديد العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بذىء اللسان ، يعطى كثيراً
قليلاً (أعنى يعطى الكثير القليل) مغلوب بحرارة الرأس سريع الغضب ، بعيد
الغيثة ، قريب الطيرة ، حسود حمود حديد ، وحسده وقف على أهل الفضل ،
وحقده سار إلى أهل الكسفاية ، أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته ، أما
المنتجعون فيخافون جفوته ، وقد قتل خلقاً ، وأهلك ناساً ، ونفى أمة ، نخوة
وتعتناً وتجبراً وزهواً ، وهو مع هذا يخدعه الصبى ، ويخبله الغبى ، لأن المدخل
عليه واسع ، والمأبى إليه سهل ، وذلك بأن يقال : مولانا يتقدم بأن أعار شيئاً
من كلامه ، ورسائل منشوره ومنظومه فما جبت الأرض إليه من فرغانه ومصر

وتفليس إلا لاستفيد كلامه وأفصح به ، وأتعم البلاغة منه ، لكأنما رسائل مولانا سور قرآن ، وفقره فيه آيات فرقان ، واحتجاجه من ابتدائها إلى انتهائها برهان فوق برهان ، فسبحان من جمع العالم في واحد ، وأبرز جميع قدرته في شخص ، فيلين عند ذلك وينوب ، ويلهى عن كل مهم له ، وينسى كل فريضة عليه ، ويتقدم إلى الخازن بأن يخرج إليه رسائله مع الورق والورق ، ويسهل له الأذن عليه ، والوصول إليه ، والتمكن من مجلسه ، فهذا هذ ، ثم يعمل في أوقات كالعيد والفصل شعراً ، ويدفعه إلى أبي عيسى ابن المنجم ويقول : قد نحلكت هذه القصيدة لمدحني بها في جملة الشعراء ، وكنت الثالث من الهمج المنشدين ، فيفعل أبو عيسى — وهو بغدادى محكك قد شاخ على على الخدائع وتحكك — وينشد ، فيقول له عند سماع شعره في نفسه ووصفه بلسانه ، ومدحه من تحبيره : أعد يا أبا عيسى ، فإنك — والله — مجيد زه يا أبا عيسى والله ، قد صفا ذهنك ، وزادت قريحتك ، وتفتحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدتنا في العيد الماضي ، مجاسنا تخرج الناس وتهب لهم الذكاء ، وتزيد لهم الفطنة ، وتحول الكودن عتيقاً ، والمحمر جواداً ، ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنوية وعطية هنية ، ويغيب الجماعة من الشعراء وغيرهم ، لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مصراعاً ، ولا يزن بيتاً ، ولا ينوق عروضاً ، ويمضى أبو حيان في تصويره لأخلاق الصاحب فيقول : والذي غلظه في نفسه وحمله على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه أنه لم يجبه قط بتخطئة ولا قوبل بتسوية ، ولا قيل له أخطأت أو قصرت أو لحت أو غلطت أو أطنبت ، لأنه نشأ على أن يقال له أصاب سيدنا وصدق مولانا ، ولله دره ولله بلاؤه ، مارأينا مثله ، ولا سمعنا من يقاربه ، ويصف حاله عند سماع هذا الإسراف في الملق والإطراء فيقول : فترأه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوى ويتبسم ، ويطيير فرحاً ويتقسم ، ويقول ولا كذا ... وهو في ذلك كله يتشاكى وينجائل ، ويلوى شدقه ويبتلع ريقه ويرد كالآخذ ، ويأخذ كالمتنمع ، ويفضب في عرض الرضا ، ويرضى في لبوس الغضب ، ويتهاك ويتهاك ، ويتقابل ، ويتأيل ... ومع كل هذا يظن أن هذا خاف على نقاد الأخلاق ، وجهابذة الأحوال ، والذين قد فرغهم الله

لتتبصع الأمور واستخراج ما في الصدور . واعتبار الأسباب ، وذلك أنه ليس بحميد العقل ولا خالص الحق ، ويسترسل أبو حيان في تحليل أخلاق الصاحب وتعليلها في اقتدار عجيب وأسلوب شائق ، ويقول ياقوت عن أبي حيان إنه « سخييف اللسان قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان ، الذم شأنه ، والثلب دكانه ، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاه ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية ، وكان مع ذلك محدوداً محارفاً يتشسكى صرف زمانه ، ويبيكى في تصانيفه على حرمانه ، وتاريخ وفاة أبي حيان غير معروف على وجه التحقيق ، والأرجح فيما يظهر أنها كانت في سنة ٤٠٠ هجرية ؛ والصورة التي رسمها للصاحب قد يكون فيها شيء من المبالغة في ذمه والجور عن القصد ، ولسكنها برغم ذلك ستكون على الدوام من المراجع التي يرجع إليها المؤرخون والباحثون عند ما يكتبون سيرة الصاحب ، ويحاولون وزن أعماله ، وتحليل أخلاقه ، وفهم شخصيته .

أما ابن حيان المؤرخ الأندلسي الكبير والذي عقد له اللواء بين مؤرخي الأندلس ، فقد ولد في سنة ٣٧٧ هجرية بقرطبة في عهد الخليفة الأموي المفلوج علي أمره هشام الثاني بن الحكم المستنصر ، وحفيد الخليفة الناصر ، وكان زمام السلطة في يد الوزير الخطير صاحب الدولة والصولة أبي عامر المنصور بن أبي عامر . وكان جد هذا الكاتب المؤرخ من موالى الأمير عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس .

وكان أبوه خلف المولود في سنة ٣٤٠ هجرية من كتاب المنصور ، وقد صاحب المنصور في مغازيه المشهورة ، وشاهده عن قرب ، وكان خلف رجلاً ممتازاً في علمه وفضله وأخلاقه ، وقد مكنته صلته بالمنصور من أن يعرف بواطن السياسة ودخائل الأمور ، وأن يرى كيف يصنع التاريخ ، وتدبر السياسات ، وترسم الخطط ، وتحاك الدسائس . وليست عندنا معلومات عن نشأة ابن حيان وبواكير طفولته ومطالع شبابه ، ولكن رجلاً مثقفاً محنكاً مثل خلف لابد أن يكون قد

اعنى بتنشئة نجله، وتمسكينه من أن يحصل العلم من أوثق مصادره ، وأحسن مظاهره . وسرعان ما ظهرت بوادر نبوغ ابن حيان ، وتجلت مواهبه واستعداداته ، وبذ زملاءه وأنداده حتى أصبح فيما بعد شيخ مؤرخى الأندلس عن جدارة واستحقاق . ولا خلاف فى أن والده خلفاً كان رجلاً كثير التجارب واسع الخبرة بالحياة ، لأن طبيعة وظيفته كانت تستلزم منه معرفة واقعية بالمجتمع الذى يعيش فيه والناس الذين يتعامل معهم ، وكان على صلة واحتكاك بالطبقات الاجتماعية كلها ، وكان على علم تام بأغراض الوزير الطموح وزير هشام الثانى وأهدافه البعيدة ، كما كان على علم بأحوال الممالك المسيحية التى أخافتها اقتصارات الوزير العبقرى المجاهد الذى حملت غزواته النار والدمار إلى ديارهم ، وكان خلف يعيش فى بلاط يقدر العلم والأدب ، ويعنى بتشجيعهما والأخذ بأيدي أصحابها ، فغير عجب أن يجد خلف نفسه مدفوعاً إلى إجادة تثقيف ابنه ، وإمداده بطائفة من المعلومات التاريخية الحقيقية والأخبار المؤكدة ، وقد انتفع ابنه إلى أقصى حد بهذه الذخيرة النفيسة وضمنها كتبه ومؤلفاته .

ودلاوة على ما تلقاه من أبيه من الدروس النافعة فإن طريقة الدراسة فى ذلك العصر كانت تلزم الشبان الناشئين فى بيئات فكرية وأوساط إجتماعية عالية أن يقتلذوا على أساتذة من أجل العلماء الأثبات فى مختلف فروع المعرفة ، ويتخرجوا عليهم ، ويحصلوا منهم على الإجازة التى تدل على توفيقهم فى الدراسة وبلوغهم فيها الأمد المطلوب ، والمستوى اللائق . ومن أساتذة ابن حيان المعروفين أبو عمر ابن أبى الحباب النحوى صاحب أبى على القالى ، والأديب المشهور أبو العلاء صاعد صاحب كتاب الفصوص ، وقد تلقى الحديث على أبى حفص عمر بن حسين بن نابل وكلهم من أشهر علماء عصرهم .

والمعروف أن ابن حيان قد تقلد منصب « صاحب الشرطة » وهو من المناصب العالية فى الأندلس ، وهو يقارب منصب الوزير أو الحاجب ، والظاهر أنه لم يتقلد غيره من المناصب ليتفرغ لكتابة التاريخ ، ويحصر فيها جهوده ، ويحبس عليها

مواهبه وملكاتة ، وقد أحسن بذلك صنعا ، وجعل قراء الأدب العربي ودارسي تاريخ الأندلس مدينين له .

وقد توفي ابن حيان في رواية^(١) ابن بسام وابن خلسكان في سنة ٤٦٩ هجرية أى أنه تيف على التسعين من عمره الحافل المديد ، وقد عاصر نظيره في الأدب وصرامة النفس وحدة اللسان ومرارة النقد أبا حيان التوحيدي في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري .

وتقوم شهرة ابن حيان الأندلسي على دعائم كتابين ، وبما كتاب «المقتبس» في تاريخ الأندلس ، وهو في عشرة مجلدات ، ويشمل تاريخ الأندلس من عهد الفتح إلى أيام الموف ، ولم يكن موجوداً منه إلى عهد قريب سوى نسخة مخطوطة من المجلد الثالث ، وقد قام بطبعه في باريس الأب أنطوان تحت إشراف المستشرق المعروف ليقي بروئنسال ، وقد عثر أخيراً فيما أعلم على المجلد الثاني منه ، ولم أسمع حتى كتابة هذه السطور أنه قدّم للطبع ، وقد تناول المجلد الثالث عهد الأمير الأموي عبد الله بن محمد ، وهو آخر الأمراء الأمويين في الأندلس ، وجد عبد الرحمن الثالث وسلفه في الإمارة ، وعبد الرحمن هو الذي أصبح فيما بعد خليفة للمسلمين في الأندلس ، وتلقب بلقب الناصر لدين الله ، وقد مهد حكم الأمير عبد الله السبيل للحكم اللامع الزاهر حكم الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر ، ومكن الأمير عبد الله حفيده من أن يقوم بالدور البارِع الذي قام به ، فقد كثر الثائرون بالأمير عبد الله ، وكادت سلطنته في الأندلس لا تتجاوز أحواز قرطبة ، وقوى أمر الثائر الشهير عمر بن حفصون . واشتدت شوكة غيره من الثائرين المتمردين ، فلم يضعف ذلك من عزم الأمير عبد الله ، وظل طوال حياته يكافح الثورات بعزيمة لا تسكل ولا تمل ، ويقاوم الثائرين مقاومة متصلة لا تلين ، ويحاول أن يضرب بعضهم ببعض ، واستطاع بذلك أن يصون السطة الملكية في الأندلس ويبقى عليها

(١) القسم الأول من المجلد الثاني من الذخيرة صفحة ٨٥ .

(٢) وفيات الأعيان الجزء الأول صفحة ٥٧ ؛ (تحقيق الأستاذ محي الدين

عبد الحميد) .

ويطيل عهدها ، وأخضع بالقوة والثبات الأعداء في الداخل ، واستوجب بذلك احترام الأعداء في الخارج .

وقد استدعى تحقيق هذا الهدف إراقة الدماء الغزيرة وإرهاق الأرواح الكثيرة . ولم يحجم الأمير عن اتخاذ الوسائل الملائمة لأغراضه دون مبالاة بالخير والشر ، فقد كان غرضه قبل كل شيء توطيد السلاطة ، وكان فيه من قومه بنى أهمية شدة حرصهم على النجاح الديوى بأى ثمن . وقد حقق أهدافه ، وترك لعبد الرحمن دولة مرهوبة الجانب بعد أن تسلمها وهي في أنياب الفوضى ، ولا نزاع في أنه لولا همة أمراء قرطبة وثباتهم وجلدهم لاسرع الانحلال إلى حكم المسلمين في الأندلس ، ولترك الأمراء المسيحيون بها ما كان بينهم من خلاف وحروب داخلية ليضربوا الغزاة الأجانب الضربة القاضية ، ويجلوهم عن بلادهم . وابن حيان يقف في كتابه موقفاً عدائياً من الثائرين على الأمير الأموى . ولا يأنف من وصفهم بأقبح الصفات ، فهو كلما ذكر اسم الثائر المتمرد ابن حفصون أتبعه بقوله « الملعون والفاسق والمفارق للجماعة وموقد نور الفتنة والساعى لإطفاء نور الخلافة والضال المضلل للناس ، وغير ذلك من الصفات التي يسبغها عليه وعلى أمثاله من الثائرين في سخطه عظيم .

وابن حيان من المؤرخين الذين يبذلون جهدهم في تحرى الصدق وقول الحق ، ولكنه رجل صارم يبعض الفوضى ، ويقدر عواقب الأمور ، ولذا لا يستطيع أن يقف موقف المؤرخ المحايد من الثائرين المتمردين الذين كانوا يضعفون بأعمالهم السلطة المركزية الرئيسية من أجل مطامعهم الشخصية ، وحزازاتهم وشهواتهم ، وأهوائهم وآراءهم ، ويشيعون الفوضى ، ويعرضون ملك المسلمين في الأندلس للانحلال والضياع ، كما حدث بعد أن سقطت الخلافة ، وتفرقت الوحدة ، وتعدد الحكم والأمراء .

فابن حيان إذا يكتب التاريخ من وجهة نظر الانتصار للخلافة الأموية ، والوقوف في جانب أمراءها والدفاع عن سياستهم ، ولكنه مع ذلك أوسع أفقاً ،

وأكثر أمانة وأشد احتراماً للحق من أن يكيل لهم المدح جزافاً ، ويخلع عليهم أبرار الشناء . بلا حساب ، وقد عدد في هذا المجد الثالث من كتابه مناقب الأمير عبد الله ، وأبدع في وصفها ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، وأضاف إلى ذلك ذكر عيوبه ونقائصه ، وأحصى عليه أخطائه وجرائمه ، وحدثننا عن بخله وشحه وإسراعه إلى سفك الدماء إلى حد أنه قتل ابنه بالسيف واحداً بعد الآخر محمداً والد الخليفة الناصر لدين الله وأخاه عدوه المطرف ، ثم قتل أخوين له معا ، قتل أخاه هشاماً بالسيف وأخاه القاسم بالسهم ، وقد ذكر ابن حزم عن الأمير عبد الله أنه كان قتالاً تهون عليه الدماء ، وأنه احتال على أخيه المنذر بن محمد سلفه في الإمارة على إيثاره له وواطأ عليه حجامة بأن سم له المبضع الذي فصد به وهو نازل بمسكره على ابن حفصون .

وكتاب ابن حيان عرض دقيق لحياة الأمير عبد الله ، ووصف للنواحي الخيرة والنواحي الشريرة من أخلاقه ، ووصف لحياة الشائرين في عصره وموقفه منهم وموقفهم منه ، وكيف كان يحاربهم ويهادنهم ، ويحاسنهم ويخاشنهم ، ووصف لمجالاته الأدبية ومظاهر علمه وثقافته ، ولا أعرف مؤرخاً من مؤرخي المشاركة يقوم لابن حيان في قوة التصوير وبراعة التلوين مع الأصالة والطراقة ، وهو في قوة تصويره وصرامته واستمساكه بالموازين الأخلاقية يذكرني بالمؤرخ الروماني العظيم تاسيتوس .

والكتاب الثاني الذي تقوم عليه شهرته هو كتاب « المتين » وهو في ستين جزءاً ، وهو ثمرة فضجه ، وخلاصة معارفة وأدبه ، ومعرض علمه وفنه ، ولكنه من الذخائر المفقودة ، والشذرات التي حفظها لنا منه ابن بسام في كتاب الذخيرة كافية في الدلالة على نفاسة هذا الكتاب ، وعلو قدر مؤلفه ، ورسوخ قدمه .

وصرامة ابن حيان في أحكامه وصراحته في وصف أخلاق الرجال — وهو يشبه أبا حيان التوحيدي في هذه الناحية شها يستدعي النظر ويسترعى الملاحظة — جعلت أحد معاصريه يقول عنه بعد موته « رأيت في النوم بعد وفاته مقبلاً إلى

فقيمت لإياه، وسلم على وتبسم في سلامه، فقلت « ما فعل الله بك ؟ » فقال « غفر لي » فقلت « فالتاريخ الذى صنفته ندمت عليه ؟ » فقال « أما والله لقد ندمت عليه ، إلا أن الله عز وجل بلطفه أقالني وعفاه عني وغفر لي ، وهو حلم يفسر الواقع ، فتقرير المؤرخ للحق قد يغضب الناس ويسوؤهم ، ولكنه يرضى الله فيغفر لقائل الحق ما يعتبره البشر ذنباً يؤخذ به ويماسب عليه .

ولم يقتصر التشابه بين ابن حيان الأندلسى وأبى حيان التوحيدي على الاسم والسكنية وجزالة الأسلوب وبراعته وإشراقه ، فقد كان كلا الرجلين من أقدر خلق الله على الثلب والهجاء ، وتصوير الميوب والنقائص ، وتقد الرجال نقداً لا ذعاً موجعاً ، في تصوير بارع ، وبيان شائق خلاب ، ورأى ياقوت الحموى في أبى حيان التوحيدي السابق ذكره يشبه رأى ابن بسام صاحب الذخيرة في ابن حيان الأندلسى فهو يقول عنه (١) « ولما تحدث في تاريخه في ملوك الطوائف بأفقتنا استشرفت طائفة منهم إلى مطالعة غرره ، وعدوه من فرص العمر وغرره ، واهتزوا لقطف زهره ، واستمدوه إياه ، وأجزلوا على ذلك قراه ، وأن تسمع بالمعيدي لأن تراه ، ليس بعشك فادر جي ولا كرامة ، لأنه وإن كان فيما قرع من هذا الباب قد مرى سحابه فصاب ، فإنه أخطأ التوفيق وما أصاب ، إذ جاء أكثر كلامه كما قال ابن الرومي :

مهما تقل فسهم منك مرسله وفوك قوسك والأعراض أغراض
وما تكلمت إلا قلت فاحشة كان فسكك الأعراض مقراض
ومن علم أن كلامه من عمله ، أقل إلا فيما ينفعه ، ومن اعتقد أنه مسئول عما يقول ويكتب عليه ما يكتب ، لم يستفرغ المجهود في القول فضلاً عن أن يشلب ، والله در القائل :

فلا تكتب بكيفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

ومع ذلك فقد كان سهماً لا ينهى رمية ، وبحراً لا ينكش آذيه ، لو ثلب الماء ما تقع ، أو تعرض لابن ذكاء ماسطح ، يتناول الأحساب قد رسخت في الثخوم ، وأنافت على النجوم ، فيضع منارها ، ويطمس أنوارها ، بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غب الموعد ، وأمكن من عذر الطبيب عند العود ، قرب شامخ بأنفه ، ثان من عطفه ، قد مر في كتابه بفصل جرده لوضع حسبه ، وخلده أحدوة باقية في عقبه ، فيرده ورود الظمان الرق ، ويلبسه لبس العريان الخلق .

وقد تراءى شبح أبي حيان التوحيدى لأحد شيوخ عصره الناقين عليه فسأله « ماذا فعل الله بك ؟ » فأجابه أبو حيان إجابة هي في جوهرها إجابة ابن حيان الأندلسي لمعاصره الذي رآه في الحلم « غفر الله لي على رغم أنفك ! » .

ولست من هؤلاء الذين يشغلون أنفسهم كثيراً بتفسير الأحلام وتأويلها ، ولكنني أكاد أستبين من وراء هذين الحلين الأثر الذي تركه هذان الرجلان في نفوس معاصريهما ، كان معاصروهما يمتقنونهما لما طبعاعليه من صراحة وصراحة اقتربت من حدود الجفوة والخشونة ، ولكنهم مع ذلك كانوا يشعرون بأنهما في جانب الحق ، وأنهما أياً أن يسيرا في موكب النفاق والباطل والزور ولذا غفر الله لهما .

وقد كانت الشدة في إصدار الأحكام جزءاً من طبيعة ابن حيان ، واضطراب العصر الذي عاش فيه ، وامتلاؤه بالفتن والثورات بما زاد هذه الطبيعة حدة وتوتراً . وقد اقترنت هذه الشدة بهويته من حيث هو مؤرخ مطبوع ، ومن أقواله عن نفسه في رقعة اختارها ابن بسام من كلامه قواه (١) « وبعد فإني امرؤ يسرت لطلب هذا الخبر واقفاء هذا الأثر ، أحرس شارده ، وأقيد نافرته ، وأبيت بأبوابه ، وأنصب لطلابه ، فشغلت به دهرأ ، وفجرت منه نهراً ، صيرني ترباً لعذنان ، وزماماً على الحدنان ، أقص أنباءه ، وأضرب أمثاله ، وأحصى وقائعه ،

(١) الذخيرة القسم الأول من المجلد الثاني صفحة ٨٦ .

واحترز مواعظه ، وانسأني المدة إلى أن لحقت يدي منبعث هذه الفتنة البربرية
الشنعاء المدلّمة ، المغرقة للجعاجة ، الهادمة للملكية المؤتلة ، المغربة الشأور على جميع
ما مضى من الفن الإسلامية ، ففاضت أهواها تعاضداً أدلّني عن تقييدها ،
ووهمني ألا مخلص منها ، فعطلت التاريخ إلى أن خلا صدر منها ، نفس الخناق ،
وبلب الرماق ، فاستأنفت من يومئذ تقييدها استقباليته من أحداثها ، فافعمت البحث
عن ذلك عند من بقي يومئذ من أهل العلم والأدب لدينا ، فلم أظفر منه إلا بما لا قدر له ،
لرهد من قبلنا قديماً وحديثاً في هذا الفن ، ونفهم له عن أنواع العلم ، واثبتت
خائباً خجلاً ألوم نفسي على التقصير ، وأحدوها بالآمل ، وأعذر من قال « هممت
ولم أفعل » ، وشرعت في التفتيد غب ذلك التفتيد ، غير مخل به ، ووصلت القول فيما
فاتني قبل من ذكر انبعاث تلك الفتنة ، وأخبار ملوكها ومشهور حروبها
بما أصبت به عندي تذكرة ، أو أخذته عن ثقة أو وصلتني به مشاهدة أو حاشته
إلى مذاكرة ، حتى نظمت أخبارها إلى وقتي مكحلة ، وجشت بها على وجوهها ،
وأوردتها على سبوعها ، ناشراً مطاويها ، ومعلناً بخوافيها ، غير محاب ولا خائف في
الصدق عليها ، سالكاً سبيل من اتسميت به من مستأخري أصحاب التاريخ بالشرق .

ومن كلامه عن زاوي بن زيري بن مناد أحد كبار زعماء البربر حينما بلغه نعيه
« نعي إلينا عدو نفسه موقد الفتنة بعد الدولة العامرية ، ورد النبا بمهلكة في القيروان
وطنه ، بعد منصرفه إليها خاملاً مغموراً بين أعظم قومه ، لم يرتفع له ذكر بينهم ،
مهلكة كان ، زعموا ، من طاعة أصابته ، فالحمد لله المنفرد بإهلاك الكفيل
بقصاصه ، فلقد كان في الظلم والجور ، والاستحلال للبحارم والقسوة آية من آيات
الله ، أهان الله مشواه ولا قدس صداه ، ومن وصفه لأحد الناس وقد طوى
ابن بسام ذكر اسمه « كان غليظ الطبع ، خشن الجانب ، وخيم الخيم ، فدماجهم
اللقاء ، يعتريه صجر يخل به ، قلما ينجو الخصم منه من بادرة ، له في ذلك أخبار
شائعة ، ومن وصفه لرجل آخر « فمي إنا فلان وكان مع ثروته مضاع الجار ،

مطول الغريم ، عانت الصديق ، مقدما في صدور الأمثال ببسطة الرزق ، على ضيق
الباع في العلم والفضل ، والاتساع في الجهل ، وقد علق ابن بسام على بعض ما اختاره
من كلمات بن حيان في وصف أخلاق بعض معاصريه بقوله (١) « وكان عندهم بقرطبة
خاتمة المتكلمين وجمهور المحسنين على ما تراه ركب من أئمة ، واحتجب من ظلم ،
وتناول من عرض ، وأطبق من سماء على أرض ، عجباً بافتنائه وتعجباً من بيانه
وتنبها على مشهور إحسانه ، وأكث ما وجدت من كلام هذا الشيخ الباقعة في
هذا الباب ، أعنى الذم ، وابن بسام بهذا الكلام يثير مسألة هامة قد اختلفت فيها
الآراء ، وهي مسألة هل يستكتفي المؤرخ بتقرير الواقع بعد أن يبذل غاية جهده
في البحث والتحري دون إصدار أى حكم أو من حقه أن يزن الأفعال والأقوال ،
ويصدر الأحكام النهائية ؟ والفريق الذى ينسكب على المؤرخ إصدار الأحكام
يرى أن الإنسان مسئول أمام الله وحده الذى يعلم خفايا الصدور ومضمر النيات
وليس أمام المؤرخين مهما يكن مبلغ علمهم وسعة إحاطتهم وسداد حكمتهم ،
وبعض الناس يرى أن نقد الاخلاق وذكر العيوب والمثالب نوع من أنواع
الاغتياب والسباب غير جائز ، ويرى فريق آخر — كما ورد في كتاب السخاوى (٢) —
« أنه ليس الأمر فيه كذلك بل فيه فوائد عديدة منها الاعتبار بأحوالهم والوثوق
بفضائلهم والتحذير من رذائلهم إلى غير ذلك ، ولا نزاع في أن الافتراء على الناس
والوقعة فيهم من الأمور المكروهة ، ولكن تحليل الأخلاق وتشريح الأعمال
والأقوال ووزن الرجال مع تحرى العدالة والإنصاف هل هو كذلك من قبيل
الغيبة المذمومة واغتصاب صفة الديان من الله العلي القدير ؟ المسألة فيها نظر
واكتفى بهذه الاشارات .

(١) الذخيرة القسم الأول من المجلد الثانى صفحة ١١٣ .

(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوى صفحة ٥٨ .

الإمام بن حزم أو المؤرخ المحب

كان الحاجب المنصور بن أبي عامر من كبار الغزاة في تاريخ الإسلام ، وفي طليعة رجال الأندلس المعدودين ، وحماها الذندين عنها ، المدافعين عن بيضتها ، والمنصرفين إلى تأييد ملك المسلمين بها ، وتثبيت أركانه ، وما أحسب في ذلك شكاً ولا خلافاً . ولكن هذا الفاتح القهار ، والغازي الظافر ، والبطل النجيد قد تورط في خطأ أمته عليه إمامه ، وفرضته عليه فرضاً ، ودفعته إليه دفعاً ، طبيعة موقفه التاريخي من ناحية ، وطموحه ومطامعه من ناحية أخرى ، فقد استطاع بحذقه ولباقته ودهائه وسياسته أن يشق الطريق إلى الاستئثار بالسلطة والنفوذ ، ويحجر على الخليفة الشرعي هشام الثاني ، ويلغى وجوده . ويستبد بالامر دونه ، وقضى على المنافسين ، وأزالهم من طريقه بأساليب ماكرة قاسية ، وحقق بذلك الكثير من أهدافه ، ولكنه أضعف فكرة السلطة الشرعية ، وأزال هيبتها من النفوس ، وجعل الاجترار عليها والاستخفاف بحقوقها أمراً ميسوراً غير مستنكر . فلما مضى لسبيله ، وعجز الذين جاءوا بعده عن أن يسدوا مسده ويقوموا مقامه ، ساءت الأحوال ، واضطربت الأمور ، واستشرى الفساد ، وإذا ضعفت المبادئ ، وعجزت الرجال ، وقلت الكفايات ، فقير غريب أن تعم الفوضى ، ويسود الظلام ، وتنطلق الشهوات من عقالها ، وتتحرك المطامع والآهواء ، وتكثر عوامل الهدم والتدمير والإبادة والخراب .

والمؤرخ الذي يطالع أخبار هذه الفترة الحزنة الشاحبة في تاريخ الأندلس يهوله ما يشاهد فيها من انتكاس الأخلاق ، وفساد الطبائع ، والتواء النفوس ، ومشاهد الغدر ، والخسة والنقص ، والقسوة والندالة ، حتى يكاد يسوء ظنه في السواد الأعظم كما يقول أبو تمام في بيته المشهور :

إن شئت أن يسود ظنك كله فأجله في هذا السواد الأعظم

ومثل هذا المؤرخ لا بد أن يستروح ويستشعر شيئاً من السرور والطمأنينة ،
ويهاوده جانب من الثقة بالنفس البشرية حينما يواجه في ذلك العصر المعتل
شخصية عفة نبيلة قوية صريحة سامية محلقة مثل شخصية الإمام أبي محمد على
ابن حزم العالم الفقيه الذى ملأ طباق الأرض علماً ، والفيلسوف المتأله الذى
اشتهر بقوة الجنان ، وحدة اللسان ، حتى قيل فيه « كان لسان ابن حزم وسيف
الحجاج بن يوسف الثقفى شقيقين » .

هذا الإمام الجاد الصارم الذى يقول فيه ابن حيان نابغة مؤرخى الأندلس
وشيوخهم (١) إنه حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال
الآدب مع المشاركة فى كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة ، قد
أخرج للناس كتاباً فى وصف الحب ودراسة أطواره ، وتحليل عوارضه وأحواله
يعد من الآثار البارزة فى تراثنا الأدبى ، ومن حقنا أن نفخر به ، ونعتز بأن من
بين مفكرينا الكبار وفقهائنا الأعلام من وجد الحب جديراً بالدرس ، خليقاً
بالبحث والتحليل ، فقد كان معظم الفلاسفة والمفكرين من عهد الفلسفة
اليونانية إلى القرن التاسع عشر يرون الحب من المسائل التى لا يصح لهم أن ينزلوا
من عليانهم إلى الكلام عنها ، وتناولها بالملاحظة والدرس والتعليل ، ولعل أول
من خالف هذا التقليد ، وشذ عن تلك السنة من بين هؤلاء الفلاسفة هو الفيلسوف
الألمانى اللامع الجرى. آرثر شوينهاور ، فقد خص الحب بفصل شائق حافل من
كتابه الشائق العظيم المسمى « الدنيا فكرة وإرادة » ، وتبعه فى ذلك تلميذه ومتقيل
آثاره الفيلسوف إدوارد فون هارتمان . فقد عقد فى كتابه القيم « فلسفة اللاشعور » ،
فصلاً بديعاً عميقاً عن الحب الجنسى اقتنى فيه آثار شوينهاور وأربى عليه ببعض
الملاحظات النافذة والتحليلات الموفقة ، وأكبر ظنى أن هذين الفيلسوفين الجليلين
قد مهدا السبيل وأنارا الطريق لبحوث العلامة النفسى الكبير فرويد الذى جعل
الحب الجنسى حجر الزاوية فى بحوثه وفلسفته .

(١) الذخيرة القسم الأول من المجلد الأول من صفحة ١٤٠ .

وكتاب « طوق الحمامة » الذي كتبه ابن حزم ليس كتاباً عن الحب فحسب ، وإنما هو كذلك كتاب اعترافات أو ترجمة ذاتية للعلامة ابن حزم ، فقد ذكر لنا فيه الكثير من أحداث نفسه ودخائلها وخفاياها ، وما اتناها من أزمات وألم بها من شدائد ، وما هزها وهالها من حوادث وقائع ، ومن خلال وصفه لنفسه وتحديثه عن نوازع قلبه استطاع أن يشرف بنا على عصره ، ويقدم لنا وثيقة نادرة عن أحواله وآدابه ، وأخبار رجاله ونسائه قل أن نعثر على مثلها في مراجع الأدب والتاريخ .

ويكشف لنا هذا الكتاب النادر عن صفاء نفس ابن حزم ، ورهافة حسه ، ورقة شعوره ، وقوة عواطفه ، وعمقها وصدقها ، ومتانة عقيدته ، ومضاء إرادته . ونستطيع أن نتبين منه لماذا كان هذا الرجل العظيم القلب والعقل وزيراً يعتمد عليه في علاج المشكلات ، ومؤلفاً من أغزر المؤلفين إنتاجاً في تاريخ التأليف الإسلامي ، وفقهياً إماماً ومناضلاً ثابتاً في فضاله ، لا تلين قناته ، ولا تصدح صفاته ، ولم يكن الإمام بن حزم محبا عميق الحب مشبوب العاطفة فحسب ، وإنما كان كذلك صديقاً صحيح الود ، صادق العهد ، جديراً بقول المتنبي .

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبي لفارقت شبي موجه القلب با كيا

وقد ألف هذا الكتاب استجابة لدعوة صديق كان على ما يظهر من أعز أصدقائه عليه وآثرهم لديه ، وأشار إلى ذلك في المقدمة بقوله (١) وكلفتني أعزك الله أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه ، وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله ، على سبيل الحقيقة ، لا متزيّداً ولا متفنتاً ، لكن مورداً لما يحضرنى على وجهه ، وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظي ، وسعة باعى ، فيما أذكره ، فبادرت إلى مرغوبك ، ولولا الإيجاب لما تكلفته . فالأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرّفها إلا فيما نرجو به رجب المنقلب وحسن المآب غداً ، والذي كلفتني

فلا بد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي وأدركته عنايتي ، وحدثني به الثقات من أهل زماني ، ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسيبأهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ، ولا أتجلى بحلي مستعار .

وقد التزم ابن حزم في كتابه هذه الحدود ، واقتصر على ذكر مشاهداته وتجاربه ، وما سمعه من يوثق به من أصحابه ، ولم يجعل الكتاب معرضاً لأخبار العشاق المتداولة ، وقصصهم المألوفة ، كما صنع غيره من الذين تصدوا للتأليف في هذا الموضوع ، مثل داود الأنطاكي في كتاب « تزيين الأسواق في أخبار العشاق » وغيره من مؤلفي الكتب الذين يعتمدون إلى جمع الأخبار ، وجيد الأشعار ، بغير تفريق ولا تمييز ، ولا تحليل ولا تعليل . أما ابن حزم فلم يست هذه طريقته ، وله من شخصيته الممتازة وتجاربه المستفيضة ومشاهداته الكثيرة ما ينأى به عن هذا السبيل المطروق ، ويجنبه هذه الخطة المبتدلة .

وقد وقف ابن حزم الفصل الأول من كتابه للكلام عن « ماهية الحب » والحب عنده لا تدرك ماهيته بالفكر وإنما تدرك بالتجربة ، وهو يقول في ذلك « الحب (١) أوله هزل وآخره جد ، دقت معانيه لجلاتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة ، ولعله قد نظر في ذلك إلى قول المتنبي .

إلام طماعية العاذل ولا رأى في الحب للعاقل

وقوله :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضاً نظرت وخلت أنى أسلم

ويذهب ابن حزم إلى أن الحب (٢) « اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع ، فما تناسب من النفوس اتصل ، وما تخالف

(١) طوق الحمامة طبعة دمشق صفحة ٤ .

(٢) طوق الحمامة طبعة دمشق صفحة ٥ .

منها انفصل ، فسر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، والشكل يستدعى شكله ، والمثل إلى مثله ساكن ، فللمجانسة عند ابن حزم عمل محسوس ، وتأثير مشاهد ، والتمايز في الأضداد ، والموافقة في الأنداد ، ويؤيد ذلك ابن حزم بقوله : « لو كانت علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الانقاص من الصورة ، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ، ويعلم فضل غيره ، ولا يجد لقلبه محيداً عنه ، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه . »

فالجب إذا استحسان ووحاني وامتزاج نفساني ، ويرى لنا ابن حزم (١) أن أبقرات أغتم حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه ، فقليل له في ذلك فقال « ما أحبني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه . »

ويعتقد ابن حزم أن المحبة لا تصح إلا بعد كثرة المشاهد وتأكد الآلفة . ولا يكتم شك في مسألة الحب من أول نظرة ، وهو يقول في ذلك (٢) « إنني لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدق ، ولا أجعل حبه إلّا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون في ظني متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً في حجاب القلب فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لي دهرأ ، وأخذني معه في كل جد وهزل ، وكذلك أنا في السلو والتوق . فما نسيت ودأ لي قط ، وإن حنيني إلى كل عهد تقدم ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء ، وقد استراح من لم تكن هذه صفته ، وما مللت شيئاً قط بعد معرفتي به ، ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائي له ، وما رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذكنت ، لأقول في الآلاف والأخوان وخدم لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعم وغير ذلك ، وما انتفعت بعيش ولا فارقت الإطراق والانعلاق مذذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجى

(١) طوق الحمامة طبعة دمشق صفحة ٨ .

(٢) طوق الحمامة طبعة دمشق صفحة ٢٢ .

يعتادنى ، ولولوعهم ما ينفك يطرقنى ، ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش
استأنفه وإنى لقتيل الهموم فى عداد الأحياء ، ودفن الأسى بين أهل الدنيا
والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو .

وعند ابن حزم أن هذا الحب الصادق الذى يسير على مهل ويتولد بطول
الامتزاج يلائم رأيه فى أن الحب اتصال بين النفوس فى أصل عالمها العلوى ،
وأن ما يقع من أول وهلة إنما هو مجرد استحسان جسدى .

وقد عقد فى كتابه فصلاً عنوانه أن من أحب صفة فى محبوبه لم يستحسن
بعدها غيرها مما يخالفها ، وبعد أن روى أمثلة تعزز ذلك مستمدة من مشاهداته
ومعلوماته شفيعها بقوله (١) وعنى أخبرك أنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء
الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو أنه على الشمس أو على
صورة الحسن نفسه ، وإنى لأجد هذا فى أصل تركيبي من ذلك الوقت لا قوائنى
نفسى على سواء ، ولا نحب غيره البتة ، وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى
الله عنه ، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله ، وأما جماعة خلفاء بنى مروان
رحمهم الله ولا سيما ولد الناصر منهم فكلهم يحبون على تفضيل الشقرة لا يختلف
فى ذلك منهم مختلف ، وقد رأيناهم ورأينا من رأيهم من لدن دولة الناصر إلى
الآن فما منهم إلا أشقر نزاعاً إلى أمهاتهم حتى قد صار ذلك فيهم خلقه ، حاشى سليمان
الظافر رحمه الله فأبى رأيت أسود اللمة واللحمة ، وأما الناصر والحكم المستنصر
رضى الله عنهما فحدثنى الوزير أبى رحمه الله وغيره أنهما كانا أشقرين أشبهين ،
وكذلك هشام المؤيد ومحمد المهدي وعبد الرحمن المرتضى رحمهم الله فأبى قدرأيتمهم
مراراً ودخلت عليهم فرأيتمهم شقراً شحلاً ، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع
أقاربهم فلا أدري أذلك استحسان مركب فى جميعهم أم لرواية كانت عند أسلافهم
فى ذلك فجزوا عليها ، وهذا ظاهر فى شعر عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن
ابن مروان بن أمير المؤمنين الناصر وهو المعروف بالطليق وكان أشعر أهل

الأندلس في زمانهم وأكثر تغزله فيها لشقر ، وقد رأيته وجالسته ، فإمامنا العلامة كان من الذين يحبون الشقراوات ، وكذلك كان المرحوم والده ، ونلاحظ هنا طريقة ابن حزم ، فهو يصف العارض من عوارض الحب ثم يستدل عليه بالشواهد ويؤيده بتجربته الخاصة .

وفي الفصل الذي يتكلم فيه عن « البين » يقول (١) «دعنى أخبرك أنى أحد من دهم بهذه الغادحة وتعجلت له هذه المصيبة ، وذلك أنى كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لى كانت فيما خلا اسمها نعم ، وكانت أمنية الممتنى وغاية الحسن خلقاً وخلقاً وموافقة لى ، وكسنا قد تكافأنا المودة ، ففجعتنى بها الأقدار ، واخترمتها الليالى ومر النهار ، وصارت نائمة الترب والأحجار ، وسنى حين وفاتها دون العشرتين سنة ، وكانت هى دونى فى السن ، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى ، ولا تغتر لى دعة على جمود عيني وقلة إسعادها ، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل فداء لقديتها بكل ما أملك من نالد وطارف ، وبيعض أعضاء جسمى العزيزة على مسارعاً طائعاً ، وما طاب لى عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها . ولقد عني حبي لها على كل ما قبله وحرّم ما كان بعده وما قلت فيها :

مہذبہ بیضاء کالشمس ان بدت وسائر ربات الحیال نجوم

أطار هواها القلب عن مستقره فبعد وقوع ظل وهو يحوم

وفي الكلام عن الهجر يقول لنا هذا العالم المجرب والحكيم العاين الذى عرف الدنيا وخبر الناس وذاق الحلو والمر (٢) «لقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبو به ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء وانبساط مدبرى الدول فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبو به عنده ، ووثق بميله إليه ، وصحة

(١) طوى الحماة طبعة دمشق صفحة ٨٨ .

(٢) طوى الحماة طبعة دمشق صفحة ٦٧ .

مودته له ، وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع التمردين الطاعينين فأرأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان قد غمره السخط ، وغلب عليه الجفاء ، ولقد امتحنت الأمرين ، وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد ، وأنفذ من السيف ، لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع ، وفي الثانية أذل من الرداء وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع ، وأغتني فرصة الخضوع لو نجح ، وأتحلل بلساني ، وأغوص على دقائق المعاني ببياني ، وأفنئ القول فنوناً ، وأنصدي لسكل ما يوجب الترضي .

ويشير ابن حزم إلى ما حل بديار قومه في خلال الاضطرابات والهزاهز والنكبات التي حلت بقرطبة فيقول (١) « ولقد أخبر بعض الوراد من قرطبة وقد استخبرته عنها أنه رأى دورنا بفساط مغيث في الجانب الغربي منها وقد انحوت رسومها ، وطمسست أعلامها ، وخفيت معاهدتها ، وغيرها البلى ، وصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافي موحشة بعد الأمان ، وخرائب منقطعة بعد الحسن ، وشعاباً مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، ومعازف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش ، بعد رجال كالليوث ، وخرائد كالدمى ، تفيض لديهم النعم الفاشية ، تبدد شملهم في البلاد فصاروا أيدي سبا ، فكان تلك المحاريب المنمقة والمقاصير المازينة التي كانت تشرق لإشراق الشمس ، ويجلو الهموم حسن منظرها حين شملها الخراب ، وعمها الهدم ، كأفواه السباع فاغرة ، تؤذن بفناء الدنيا ، وتريك عواقب أهلها ، وتحبرك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ، وتزهّد في طلبها بعد أن طال ما زهدت في تركها ... وقد أبكى ذلك عيني وأوجع قلبي ، وقرع صفاء كبدي ، وزاد في بلاء لي . »

ويصف ابن حزم طبيعته فيقول (٢) « وعني أخبرك أني جبلت على طبعيتين لا يهتني معهما عيش أبداً ولاني لأبرم بحياتي باجتماعهما ، وأود التثبّت من نفسي

(١) طوق الحمامة طبع دمشق صفحة ٩١ .

(٢) طوق الحمامة طبع دمشق صفحة ١١٤ .

أحياناً لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما وهما : وفاء لا يشوبه تلون قد استوت فيه الحضرة والمغيب والباطن والظاهر ، تولده الألفة التي لم تعزف بها نفسى عما دريته ، ولا تتطالع إلى عدم من صحبته ، وعزة نفس لا تقر على الضيم ، مهمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف ، مؤثرة للبوت عليه ، فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها ، ولما لا جنى فاحتمل ، واستعمل الأناة الطويلة ، والتلوم الذى لا يكاد يطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر ، وحميت نفسى ، تصبرت ، وفى القلب ما فيه .

وموجز القول أن لابن حزم فى كتاب طوق الحمامة - وهو من قبيل التراجم الذاتية فى الأدب العربى - نظرات فلسفية قيمة ، وتحليلات نفسية ثمينة ، وأخباراً تاريخية ممتعة ، وخبرة بالناس والحياة واسعة شاملة ، مع السرد السهل ، والعرض الشائق ، وقد يسر ذلك لابن حزم ثقافته العالية ، ونشأته الأرستقراطية ، وقوة عقله وعواطفه وأحاسيسه ، وكثرة تجاربه ومشاهداته .

الفتح بن خاقان أو المؤرخ الفنان

سبق أن أوضحنا أنه بعد ظهور الإسلام في النصف الأول من القرن السابع الميلادي وتتابع الفتوح الإسلامية بسرعة لم يسبق لها نظير في التاريخ شغل المسلمون بغزوانهم المظفرة عن تدوين الأخبار ، وأنه لما استقر المسلمون في الأمصار التي بسطوا عليها سلطانهم وهدأت حركة الفتح والغزو ، ظهر الأخباريون والرواة والمؤرخون ، وأنه لم يكن عند العرب مؤلفات تاريخية ، ولا مدونات للحوادث والكوائن قبل عهد النبي مأثورة معروفة ، وأنه لما كان النبي العظيم هو باعث النهضة ومحركها الأول فن الطبيعي والمعقول أن تكون سيرته وأحاديثه وسواقفه هي أول موضوع للتاريخ الإسلامي ، وأن يتبع ذلك في الأهمية تاريخ صحابته الأوفياء والذين حاربوا تحت لوائه واستشهدوا في سبيل دعوته .

وقد ظلت أخبار هذه السيرة العطرة والمواقف المشرفة الجميلة تروى بالسماع والرواية في أغلب الحالات قرابة قرن حتى تكاثرت الروايات وازدحمت وأصبحت عبئاً تنوء تحته الذاكرة ، ويكاد يعجز الرواة والحفاظ ، وخيف عليها من الضياع والتشتت والتحريف والتبديل ، فبدأ تسجيلها وتدوينها ، وكان ذلك في أواخر العهد الأموي ، وقد قويت الحركة وظهرت آثارها جليلة واضحة في العصر العباسي الأول .

وبطبيعة الحال نشأ التاريخ المكتوب من الروايات المسموعة ، والأخبار المرددة المتناقلة ، وبذل الحفاظ جهداً مشكوراً على قدر ما تستطيعه الطاقة البشرية في تحرى صحة الأخبار ، والاعتماد على الذين شاهدوا الحوادث بأنفسهم ، أو سمعوا أخبارها من حضروها ، وكان الحفاظ ينقل الإسناد ليبدل على صحة روايته ، والإسناد هو ذكر سلسلة متتابعة من الأشخاص الذين تناقلوا الخبر عن منبعه الأصلي قبل أن ينحدر إليه ويبلغ سمعه .

واعتماد مؤرخى الإسلام على الرواية والإسناد كان يجعل لرأى الشاهد الأول قيمة كبيرة ، لأن روايته هى الأساس الذى يقوم عليه الإسناد من ناحية ، وتحقيق المؤرخ من ناحية أخرى ، ولذلك استلزم الأمر مزيد العناية بتعرف أخبار هؤلاء الرجال وتحرى سيرهم وأخلاقهم ، ونزعاتهم الفكرية ، واستأثر ذلك بنصيب كبير من جهد المؤرخين ، وهذا هو الأصل فى ظهور كتب الطبقات ، وأسبقها كما هو معروف طبقات ابن سعد .

وقد سار المؤرخون المختلفون على غرارها فظهرت طبقات الشعراء وطبقات الأطباء وطبقات النحاة وتواريخ الأعيان ، وهى تتناول تاريخ الرجال الذين امتازوا وبرزوا فى أية ناحية من نواحي الحياة الدينية أو الأدبية أو السياسة ، وتعرفنا بهم ، ونلخص لنا أعمالهم وأخبارهم ، وتتفاوت هذه الكتب فى الإفادة والإتقان ، والتحقيق والتدقيق ؛ ومن الكتب التى صيغت على هذا المثال ، واتجهت فى هذا الاتجاه كتاب فلائد العقيان وكتاب « مطمح الأنفس » للأديب الأندلسى المعروف والكاتب المنشئ القدير أبى نصر الفتح بن محمد الذى عرف فى تاريخ الأدب باسم « الفتح بن خاقان » .

والمعروف عن نسب الفتح هو أنه الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسى الإشبيلى ويكنى أبا نصر ، وقد اشتهر بابن خاقان ، وخاقان فيما أعلم لفظة تركية معناها الملك ، فمن أين جاءت الفتح هذه الخاقانية التى قد توجد شيئاً من اللبس بينه وبين الفتح بن خاقان وزير الخليفة العباسى المتوكل وصفيه الذى قتل معه ؟ وقد كان الفتح وزير المتوكل تركى النجار ، أما الفتح « الأندلسى العربى » فالظاهر أن نسبة الخاقانية إليه كانت من قبيل التنقص له والزراية به ، كما (١) يستخلص من كلام مؤرخى المغرب والأندلس عنه .

وقد نشأ الفتح في قرية من قرى الأندلس تعرف بقلعة الولد من قرى يحصب .
وهي في إقليم غرناطة ، ومن شيوخه وأساتذته (١) أبو بكر بن القصيرة وأبو بكر
الداني المعروف بابن اللبابة وأبو محمد بن عبدون وابن دريد السكاتب وغيرهم .

وقد أجمع نقاد الأدب في الأندلس والمغرب على أنه كان كاتباً بليغاً عذب
الآلفاظ ، لعوباً بأطراف الكلام ، قديراً في الوصف ، حتى قال بعض من
عرفه (٢) : « لأنه أراد أن يفضح الشعراء الذين ذكروا في كتبه بنثره ساحه الله ، وهو
أحد من اعتمد عليهم المقرئ في كتابه المشهور « نفع الطيب » ونقل عنه كثيراً ،
ومن أقواله عنه (٣) : « وهو يشيد قصور الشرف إذا مدح ، وينهدم معاقله إذا
هجا وقبح » .

وقد كان الفتح معاصراً لابن بسام صاحب الذخيرة ، ويروى المقرئ عن
الحجاري في المسهب قوله في الفتح (٤) : « الدهر من رواة قلائده وحمله فرائده ، طلع
من الأفق الإشعيلي شمساً طبق الآفاق ضياؤها ، وعم الشرق والغرب سناها
وسناؤها ، ويعقد الحجاري موازنة بينه وبين ابن بسام فيقول « الفتح وأبو الحسن
ابن بسام الشنمري مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان . وكلاهما قس وسحبان ،
والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً وعلماً مفيداً ، وإطناً في
الأخبار ، وإمتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تسكف ،
وكلامه أكثر تعلّقاً وتعشّقاً بالأنفس ، ولولا ما اتسم به مما عرف من أجله بابن خاقان
لكان أحد كتاب الحضرة المرابطة بل يجليها المستولى على الرهان ، وإنما اخل به
ما ذكرناه ، مع كونه اشتهر بزم الاحساب ، والتمرين بالاطعن على الأدباء والكتاب ،
وأحسها موازنة دقيقة صحيحة على إيجازها ، والواقع أن ابن بسام أكثر
موضوعية ، وأقرب إلى الطريقة العلية ، وأدق وأوفى ، وأنزه وأسمى ، والفتح أكثر

(١) نفع الطيب الجزء ٩ ص ٢٤٢ .

(٢) نفع الطيب الجزء ٥ صفحة ٣٥٦ .

(٣) نفع الطيب الجزء ٥ صفحة ٣٥٩ .

(٤) نفع الطيب الجزء ٩ صفحة ٢٤٥ .

ذاتية وتشبعاً بالروح الأدبية ، وقد كان يتكسب بأدبه ، ويخيف الناس بطول لسانه وقدرته في الثلب والهجاء ، ويستدر بذلك أخلاف الرزق ، ويلتمس به العلماء والتبريز ، وهو أسلوب غير كريم ظلم به نفسه ، وأساء إلى أدبه . ولا نزاع في أنه كان أديباً مطبوعاً ، وكتاباً منشئاً قديراً ، وربما كان أحلى عبارة من ابن بسام وأوجز إشارة ، ومزاج ابن بسام أقرب إلى أمزجة العلماء والمفكرين ، وأما الفتح فأخلاقه تشبه أخلاق بعض الشعراء المنحرفين ، والذين ابتلاهم الله بالشذوذ ، والخروج على العرف المألوف من أصحاب الأمزجة الفنية ، والمعروف عنه أنه كان مجازفاً لا يمل المعاقرة والقصف حتى هان قدره على الناس ، وابتذلت نفسه ، وساء ذكره ، ولم يدع بلداً من بلاد الأندلس إلا دخله مسترفداً أميره وأعيانه ، فإذا قصرُوا في حقّه ، ولم يؤدوا إليه الإتاوة ، أمضهم بهجائه وثلبه وبذاة لسانه .

وعبارات الفتح مسجعة ، ولكن سجعته يكاد يكون ترسلاً عادياً خالياً من وصمة التكلف ، بريئاً من التعقيد ، وسجعته يرضى الأذن ، ويسيعه الذوق ، ويدل على غزارة محصوله اللغوي ، وسعة اطلاعه في تاريخ الأدب العربي وأيام العرب في الجاهلية ، ولكنه على عذوبة ألفاظه وموسيقيتها وما يدل عليه من براعة فنية لا يحمل إلينا فكرياً دقيقاً صائباً ، ولا رأياً جديداً بمحسناً ، ولا حقائق مؤكدة يمكن الرجوع إليها والاعتماد عليها ، ولا معلومات وثيقة يمكن الأخذ بها والوقوف عندها ، والواقع أن كتاب قلائد العقيان ، وهو أشهر ما كتب الفتح ، وعليه تقوم شهرته ، أقرب إلى المقامات في حسن اختيار الألفاظ وتنسيقها ورصفها ، فقيمته في جزالة أسلوبه ، ورصانة ألفاظه ، ولكننا لانستطيع أن نثق بحقائقه التاريخية أو نظمنا إلى نزاهة حكمه على الأشخاص ، ووزنه لهم ، وتقديره لمواهبهم ، وهذا هو رأيي في الروح الغالبة على الكتاب ، وأحب أن أستدرك فأقول إن بعض تراجم الفتح لا تخلو من تصوير بديع ، وأخبار شائقة . ومن هذا القليل ما كتبه عن الحاجب جعفر بن محمد المصحفي والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في كتاب المطمح ، ويتخلل كتابيه — القلائد والمطمح — أخبار مسلمة عن

مطارحات الشعراء والادباء ومجالس لهوهم ، فإن لفتح ميلا خاصاً إلى الإكثار من ذكر مجالس الشراب وأخبار القصف والمجون ، ومن شعر الفتح قوله :

إلى أين ترقى قد علوت على البدر وقد نلت غايات السيادة والقدر
وجدت إلى أن ليس يدرك حاتم وأغنيت أهل الجذب عن سبل القطر
وكم رام أهل اللوم باللوم وقفه وبحرك مد لا يؤول إلى جزر
ولو لم تكن فيك السماحة خلة لأثر ذاك اللوم فيك مع الدهر

وبما يروى عنه (١) أنه قصد يوماً إلى مجلس قضاء أبي الفضل عياض نحرأ ، فتنسم بعض حاضري المجلس رائحة الخمر فأعلم القاضي بذلك ، فاستثبته وحده جداً تاماً ، وبعث إليه بعد أن أقام عليه الحد بثمانية دنانير وعمامة ، فقال الفتح حيثئذ لبعض من أصحابه : عزمت على إسقاط القاضي أبي الفضل من كتابي الموسوم بقلائد العقيان ، قال : فقلت له لا تفعل وهي نصيحة ، فقال : وكيف ذلك ؟ ، فقلت له : قصتك معه من الجائز أن تنسى ، وأنت تريد أن تتركها مؤرخة ، إذ كل من ينظر في كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله ودونه في العلم والصيت ، فيسأل عن ذلك فيقال له ، فيتوارث العلم عن الأكبر الأصغر ، قال فتبين الفتح ذلك وعلم صحته وأقر اسمه .

وقد رزق الفتح في هذه المرة — إن صححت هذه الرواية — صديقاً ناصحاً جنبه هذا المزاق ، ولكن من سوء حظّه على ما يظهر أنه لم يكن دائماً إلى جنبه من يقدمون له مثل هذه النصيحة الثينة ، فكان يغلبه هواه على علمه ، ويضل رأيه ، ويفسد عليه أمره ، وقضيته مع الفيلسوف الأندلسي بن باجة تبين لنا كيف كان يركب هذا الرجل رأسه ، ويطاوع نزواته ، ويتجافى عن الحق ، ويعتمد التشويه والتضليل ، والاتجار بالإساءة والهجو ، دون أن يزعه ضمير حي أو يرده خلق

كريم ، واسم ابن باجة أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ ، وقد حمل عليه الفتح في كتاب القلائد حملة شعواء ، وهجاء هجاء مرأ ، وصوره في صورة قبيحة ، وبدأ الكلام عنه قائلاً في أسجاعه المعهودة (١) «هو رمد جفن الدين ، وكند نفوس المهتدين ، اشتهر سخفًا وجنوناً ، وهجر مفروضاً ومسنوناً ، فما يتشرع ولا يأخذ في إغير الأضاليل ولا يشرع ، تاهيك من رجل ما تطهر من جنابة ولا أظهر مخيلة إنابة ، ولا أقر بياربه ومصوره ، ولا فر عن تباريه في ميدان تهوره ، الإساءة إليه أجدى من الإحسان ، والهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر في تلك التعاليم وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله الحكيم العليم ... مع منشأ وخيم ، ولؤم أصل وخيم ، وصورة شوها الله وقبحها ، وطلعة إذا أبصرها السكب نبجها »

وبعد أن أطال الضرب على هذه النعمة ليؤكد في ذهن القارئ سوء عقيدة الرجل ، وراح يطعن في أصله ونشأته وأخلاقه وصورته ، اتهمه في أدبه بالإغارة على معاني الشعراء وأخذها من أربابها أخذ الغاصب ، ورماه بقلة العقل ونزارته والقذارة والوضارة ، وسوء السياسة ، ونقص الكياسة ، إلى آخر ما في الفصل الذي عقده للحديث عنه ، وختم به كتاب القلائد فكان ختامه غير مسك .

والرجل الذي تحامل عليه الفتح هذا التحامل القاسي ، وشن عليه هذه الغارة الشعواء ، ورماه بتلك الأوصاف المعيبة . هو الذي يقول فيه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة « إنه آخر فلاسفة الإسلام في الأندلس » ، والذي يقول عنه ابن طفيل الفيلسوف ومؤلف رسالة « حى بن يقظان » ، عند كلامه عن أضرايه من مفكرى الأندلس وفلاسفتها (٢) « لم يكن فيهم أنقب ذهنًا ولا أصح نظراً ، ولا أصدق رواية من أبي بكر بن الصائغ » ، غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن

(١) قلائد العقبان طبع مصر صفحة ٣١٣ .

(٢) رسالة حى بن يقظان طبع دار المعارف صفحة ٦٢ .

عليه وبث خفايا حكمته ، وكان إلى جانب ذلك له ملكة شعرية وشعر رقيق ، ومن (١) الحكايات المشهورة عنه أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى على بعض قيناته موشحته التي مطلعها .

جرر الذيل أيما جر وصل الشكر منك بالشكر
فطرب الممدوح لذلك ، فلما ختمها بقوله :

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبي بكر

ولما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح واطربا ، وشق ثيابه ، وقال : ما أحسن ما بدأت وما ختمت ، وحلف بالآيمان المغلظة لا يمشی ابن باجة إلى داره إلا على الذهب ، تخاف الحكيم سوء العاقبة ، فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه .

وهناك روايتان في سبب تحامل الفتح على ابن باجة ، تقول الرواية الأولى إنه لما عزم الفتح على تصنيف كتاب « قلائد العقيان » جعل يرسل إلى كل واحد من ملوك الأندلس ووزرائها وأعيانها من أهل الأدب والشعر والبلاغة ويعرفه عزمه ويسأله إنقاذ شيء من شعره ونظمه ونثره لينذكره في كتابه ، وكانوا يعرفون شره وثلبه فكانوا يخافونه وينفذون إليه ذلك وصرر الدنانير ، فكل من أرضته صلته أحسن في كتابه وصفه وصفته ، وكل من تخافل عن بره هجاه وثلبه ، وكان ممن تصدى له وأرسل إليه أبو بكر بن باجة المعروف بابن الصانع ، وكان وزير ابن تيفلويت صاحب سرقسطة وهو أحد الأعيان وأركان العلم والبيان شديد العناية بعلم الأوائل ، مستول على أهل الأشعار والرسائل ، وكانوا يشبهونه بالمغرب بابن سينا بالمشرق ، وله تصانيف في المنطق وغيره ، فلما وصلته رسالته

(١) مقدمة ابن خلدون طبعة المطبعة الشرقية صفحة ٦٩١ والنسخ الجزء التاسع صفحة ٢٢١ . ويقول الفتح في القلائد صفحة ٣١٩ إن ممدوحه هو الأمير أبو بكر بن ابراهيم وهو الذي أخذ وزيراً له وكذلك في النسخ صفحة ٢٤ الجزء التاسع .

تهمون بها ، ولم يعرها طرفه . ولا لوى نحوها عطفه ، وذكر ابن خاقان بسوء فعله فجعله ختم كتابه وصيره مقطع خطابه ، وقد غاظ الفتح إغفال ابن باجة لأمره وأحقدته عليه فنفث سمه في تلك الأسجاع البذيئة التي حاول بها أن ينال من ابن باجة ويشوه صورته ، فقال من نفسه أضعاف ما نال من ابن باجة .

والرواية الثانية تقول (١) إنهما كانا قد اجتمعا في مجلس ، وأخذ الفتح يكثر من ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ، وأسهب في وصف حلي ، وكان يبدو من أنفه فضلة خضراء اللون ، فلما مل ابن باجة حديث الفتح عن نفسه التفت إليه وقال له ساخراً مستهزئاً : فمن تلك الجواهر إذا الزمردة التي على شاربيك ، فخذها الفتح ، وثلبه في كتابه ، وأرجع الرواية الأولى لأنها تتفق مع ما عرف عن أخلاق ابن باجة من الحرص على المال والرغبة الشديدة في جمعه واكتنازه والرضن به ، والفتح في شدة جشعه إلى المال ، والتماسه بكل الطرق والوسائل لم يكن يحز في نفسه شيء ويشيره ويحقدته مثل حرمانه من العطاء ، وخيـبـ المال عنه ، ومهما يكن من الأمر فإن الروايات المختلفة تجمع على أن ابن باجة لما بلغه ما كتبه الفتح أنقذ له مالا استكف به واستصلحه ، فلما صنف الفتح كتاب المطمح (٢) افتتحه بذكر ابن الصائغ وأثنى عليه فيه ثناء عظماً جميلاً فقال : الوزير أبو بكر بن الصائغ بدر فهم ساطع ، وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الأعصار وتأرجحت من طيب ذكره الأمصار ، وقام به وزن المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فناً وتهدل ، وعطل بالبرهان التقليد ، وحقق بعد عدمه الاختراع والتوليد ، إذا قدح زند فهمه أورى بشر للجهل محرق ، وإن طما بخر خاطره فهو لكل شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذي هو

(١) نفح الطيب الجزء ٩ صفحة ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٢) معجم الأدباء الجزء ١٦ صفحة ١٩٠ والنفع جزء ٩ صفحة ٢٣٦ وهو ينص على أن هذا المدح ورد في بعض كتبه ، ونسخة المطمح التي يبدى حالية من ذكر ابن باجة ولعله ذكره في نسختي المطمح الآخرين .

الإيمان شقيق ، والجد الذي يخلق العمر وهو مستجد ، واه أدب يود عطارد أن يلتحفه ، ومذهب يتعنى المشتري أن يعرفه ، ونظم تتمناه اللبات والنحور ، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور .. ، وقد أتبع ذلك الكلام بإيراد مختارات من شعره . والمسألة هنا ليست مسألة ذكر الجوانب المختلفة من شخصية ابن باجة ، النواحي المتعارضة في أدبه وتفكيره ، وأخلاقه وسيرته ، لأن الفتح لو كان حاول ذلك لما وقع في التناقض ، ولو وجد مجال القول ذا سعة . وإنما الواضح أن الرجل الذي كان في رأى الفتح فاسد العقيدة ، ورمداً لجفن الدين قد أصبح هنا مؤمناً فازه النفس ، متصاوفاً يود عطارد أن يلتحف بأدبه إلى آخر هذا النوع من السجع الذي كان يجيده الفتح لإجادة بارزة ممتازة ، ولم يصبح الرجل كذلك وتستحيل أحواله وصفاته من النقيض إلى النقيض إلا بعد أن دفع الثمن وأدى الجزية .

وعلى هذا الخط من الإسراف في المدح أو المبالغة في القسح سير الفتح في كتابيه القلائد والمطمع ، فهو لا يحاول أن يذكر موضع الإعجاب أو موضع المؤاخذة ويدلل على كليهما بالكلام المناسب والمنطق المتناسك ، ولا يحكم عقله وتفكيره ، وذوقه الأدبي المجرد من الأهواء ، وإنما يحكم عواطفه ونوازعه وأهواءه ومآربه ومصالحه ومراغبه ، والأسلوب المسجع بطبيعته وحكم تركيبه وبناءه قد لا يتسع لتقرير الحق ، ووصف الواقع ، فكيف إذا انساق الكاتب مع أهوائه ، وسيطرت عليه نزواته ، والفتح يجيد كما قدمت وصف مجالس الشراب وساعات اللهو والاستمتاع ، وربما كان ذلك عجيباً منه حين يترجم للفقهاء والقضاة ، والحياة في نظر الفتح حانة خمر ومجلس لهو ، والفتح في ترصيعه للكلام وتنميقه للعبارات لا يتحرى الحق ، ولا يريد الصدق ، فهو في الكتابة يعبت ويلهو ويتسلى ويلعب ، ولكنه في عبثه ولهوه نمط خاص ، و طراز ممتاز ، يدل على قدرة فنية قد أسىء في بعض الأحيان استعمالها ، وملكة كان يمكن أن يُفيد منها الأدب كثيراً واحترام الحقيقة وتحري الانصاف لولا ما ركب في طباع الفتح من جشع وما أصيب به من انحراف وشذوذ .

ومن جيد رسائله تلك الرسالة التي بعث بها إلى أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين يشكو الوزير الخطير والحكيم العظيم ، أبا العلاء زهر بن عبد الملك ، وكانت بينه وبين الفتح عداوة لم تذكر المراجع التي بين يدي أسبابها ، والظاهر أن الفتح كان مبتلي بعداوة الحكماء والفلاسفة والمتنبي يقول :

ومكاييد السفهاء واقعة بهم وعداوة الشعراء بثس المقتني
وما أحسب عداوة الحكماء أقل ضرراً من عداوة الشعراء بل ربما كانت أبلغ ضرراً وأسوأ عاقبة ، ويقول الفتح في رسالته ، (١) أطال الله بقاء الأمير الأجل سامعاً للنداء ، دافعاً للتطاول والاعتداء ، لم ينظم الله تعالى بلبنتك الملك عقداً وجعل لك حلا للأمور وعقداً ، وأوطأ لك عقباً ، وأصار الناس لعونك منتظراً ومرتباً ، إلا أن تكون للبرية حائطاً ، وللعبد فيهم باسطاً ، حتى لا يكون فيهم من يضام ، ولا ينال أحدهم اهتضام ، ولتقصر يد كل معتد في الظلام ، وهذا ابن زهر الذي أجرته رسناً ، وأوضحت له إلى الاستطالة سنناً ، لم يتعد من الإضرار إلى حيث انتهيته ، ولا تمادى على غيه إلا حين لم تنه أو نهيته ، ولما علم أنك لا تسكر عليه نكراً ، ولا تغير له متى ما مكر في عباد الله منكراً ، جرى في ميدان الأذية ملء عنانه ؛ وسرى إلى ما شاء بعدوانه ، ولم يرقب الذي خلقه ، وأمد الخطوة عند طلقه ، وأنت بذلك مرتهن عند الله تعالى لا أنه مكسبك لئلا يتمكن الجور ، ولتسكن بك الفلاة والغور ، فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل في كل طريق ، وأخفق به كل فريق ، وقد علمت أن خالك الباطش الغيور ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وما تخفي عليه نجواك . ولا يستتر عنه تقلبك ومشواك ، وستقف بين يدي أعدل حاكم ، يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم ، قد علم كل قضية قضاها ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فبم تحتج معي لديه إذا وقفت أنا وأنت بين يديه ؟ أترى ابن زهر ينجيك في ذلك المقام ، أو يحميك من الانتقام ، وقد أوضحت لك الحججة ، لتقوم عليك الحججة ، والله سبحانه النصير وهو بكل خلق بصير ، لا رب غيره والسلام ،

وربما كان من بواعث اجترار الفتح في مخاطبة ابن يوسف في هذه الرسالة ما كان يعلم من فرط تقوى الرجل وشدة خوفه لله ولذلك أكثر الفتح من الضرب على هذه النعمة في رسالته .

وقد كانت خاتمة حياة الفتح مأساة آلمة . فقد وجد قتيلا في فندق بمراكش سنة ٥٢٨ هجرية أو سنة ٥٢٩ م مثالا به أقبح تمثيل . ويقال إن الذي أشار بقتله أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وكان معروفا بصرامة العقيدة والشدة في أمور الدين . وهو أخو الأمير أبي اسحق ابراهيم بن يوسف الذي أهدى إليه الفتح كتاب القلائد وأننى علميه في صدر الكتاب ثناء أمستظاباً ، وربما كان هناك خلاف أو تنافس بين الأخوين كان الفتح من ضحاياهما ، وربما كان للرسالة المذكورة أثر في غضب أمير المسلمين عليه وإشارته بقتله ، رحم الله الفتح وغفر له .

ابن بسام أو مؤرخ الأدب

روى المقرئ فى كتابه القيم « نفح الطيب » أن أحد رجال المغرب وفد على بغداد حاضرة الخلافة العباسية فى عهد الخليفة الجليل الشأن هارون الرشيد ، ولأمر ما مثل هذا الوفد المغربى بين يدى الخليفة العظيم ، فقال له الخليفة فى حديثه معه وهو يدل بسعة سلطانه وعلى شأنه « يقال إن الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب » فأجابته المغربى وكان على ما يظهر رجلاً حاضراً البسمة جرى الجنان « صدقوا يا أمير المؤمنين وإنه طاروس » فضحك الرشيد وتعجب من سرعة جواب الرجل وانتصاه لقطره ، ولعل هذا الجواب البارح — إن كان لهذه القصة المروية نصيب من الحق ولم تكن من تلفيق الوضاعين أو طرف الظرفاء المتنديرين — قد حمل الرشيد على أن يعيد نظره فى تقدير أهل الأندلس والمغرب ، وأن يعلم أن الله تعالى قدرته أكرم وأعدل من أن يسبغ المواهب جميعها على قوم من الأقوام ، ويحرم منها سائر البشر ، فكل مصر من الأمصار ميزته وبراعاته وخصائصه التى يتفرد بها ، ولكل قوم من الأقوام مجال من مجالات السبق والتجويد والإحسان والتبريز ، وقد مضى العهد الذى كانت فيه المآرب السياسية المتهمة أو التعصبات المذهبية الغاشمة تقتضى ترجيح الغرب على الشرق أو تفضيل الشرق على الغرب ، وأصبحنا فى عهد نحصر فيه الحرص كله على معرفة الثقافات الإنسانية فى شتى ألوانها ، ومختلف مظاهرها ، لتزداد مداركنا سعة وعمقاً ، وتأت كد معرفتنا ، ويستقيم تفكيرنا ، وتطرّد مقاييسنا .

وقد لا نجد فى الأدب الأندلسى نظراء للفحول المتقدمين من كبار شعراء المشاركة من طبقة أمثال المتنبى وأبى تمام والبحترى والمعرى والشريف الرضى ، ولكن لانزاع فى أن الأدب العربى يخسر الكثير إذا أغفل شعر أمثال ابن زيدون وابن خفاجة وابن دراج القسطلى والرمادى وابن شهيد وغيرهم من كبار شعراء

الآندلس ويمثل الأدب الآندلسي والثقافة الآندلسية المغربية ، ونحن إن كنا لا نرى في الأدب الآندلسي الجبال الشاخنة الذرى التى تظالنا فى أدب المشاركة إلا أن الهضبات الكثيرة التى تصادفتنا فى الأدب الآندلسي لها جمالها وروعها ، وهى حافلة بمونق الأزهار وشهى الثمار ، وقد أبقي لنا منها مجموعة صالحة ونخبة ممتازة من الشعر والنثر ذلك الكتاب الممتع النفيس الذى وضعه الأديب المذهب الذوق ، الحسن الاختيار ، أبو الحسن على بن بسام الشنتريني وأسماه د الخخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، وهذا الكتاب من أجل كتب الأدب العربى وأنفسها وأحفلها بالطرف والروائع وعجائب الأخبار ، وغرائب السير ، وقد لا يكون له من علو الشأن وجلالة الخطر ما لكتاب الأغانى أو تاريخ الأمم والملوك للطبرى وأمثالهما من المراجع الماثورة ، ولكن مع ذلك يستطيع أن يطاول الكثير من المؤلفات الأخرى الأدبية ذوات الشهرة الواسعة والمسكاة العالية مثل كتاب يتيمة الدهر للشعالى وزهر الآداب للحصرى ، وهو بالقياس إلى الأدب الآندلسي مرجع من أهم المراجع وأوثقها وأغناها ، وحينما يكمل طبع الأجزاء الباقية منه سيجد الباحثون فى تاريخ الأدب الآندلسي وتاريخ الآندلس عامة أن جانباً لا يستهان به من طريق البحث فى الأدب الآندلسي والتاريخ الآندلسي قد أصبح واضح المعالم لا يضل فيه السائر بين الشعاب والثنائيا والمنعرجات .

ومؤلف هذا الكتاب الجامع والسفر النفيس وهو أبو الحسن على بن بسام من الرجال الذين كننا نحب أن نعلم الكثير عن نشأتهم وسيرتهم ، ولا نزاع فى أن حياة الرجل الذى سد مثل هذه الثغرة فى تاريخ الأدب الآندلسي جديرة بالدرس والعناية ، ولكن ما نعلمه عن حياة ابن بسام ونشأته ومذهبه وسيرته قليل جداً لا يتقع الغلة ولا يبنى بالحاجة ، وقد كان ابن خلكان يعرف اسمه ، وقد أطلع على كتابه ، ونقل عنه ، واعتمد عليه ، ومع ذلك لم يحشره فى زمرة أعيانه ولم يخصه ياقوت الحموى فى معجمة المعروف سوى بأسطر قلائل ، وهو

عنده مؤلف كتاب الذخيرة وكفى ، وذكره المقرئ مراراً في نفع الطيب ونقل عنه ، ولكنه مع ذلك لم يفرد له ترجمة مفصلة أو موجزة ، وإنما لهبرة مؤلة أن تضع أخبار من حفظ أخبار الناس ولا نعرف تاريخ من وعى صدره التاريخ ، وقد نشأ ابن بسام في مدينة شنترين ، وهي مدينة معدودة في كورباجة على الشاطئ الأيمن من نهر تاجه وموقعها إلى الشمال الشرقى من أشبونة ، يقول عنها صاحب الروض المعطار (١) : « إنها من أكرم الأرضين ولها بساتين كثيرة وفواكه ومباقل وبينها وبين بطليوس أربع مراحل ، ونهرها يفيض على بطحائها كفيض نيل مصر فيزدريع أهلها على ثراه عند انقطاع الزريعة في البلاد وذهاب أوانها ، فلا يقصر عن ثماته الطيب ، ولا يتأخر إدراكه ، وقد ظل بها ابن بسام مكفول الرزق ، مكفى الحاجة ، قد أغناه كرم الانتساب عن سوء الاكتساب ، كما يقول عن نفسه ، حتى خرج منها مروع السرب ، مفلول الغرب ، وكان موقف المسلمين في الأندلس قد أخذ يتخرج منذ أواخر القرن الرابع الهجرى ، وازداد خطورة خلال القرن الخامس ، وكانت المدن الواقعة في الأطراف المتناحية مثل شنترين تجد صعوبة في المحافظة على كيائها ورد الغارات عنها ، ولما انهارت الخلافة الأموية بالأندلس ، وظهر ملوك الطوائف كانت شنترين من البلاد التي دخلت في جوزة بنى الأفطس ، وقد اتصل ملكهم حتى قتل المرابطون المتوكل آخر ملوكهم في غرة سنة ٤٨٥ ، والظاهر أن مدينة شنترين وقعت بعد ذلك في قبضة الأسبانيين حتى استردها منهم الأمير سيرين أبى بكر بن تاشفين أخى يوسف ابن تاشفين فى عهد أمير المسلمين المرابطين على بن يوسف بن تاشفين ، ولكن الأسبانيين عاودوا الكرة واستولوا عليها ، وقد حاول أمير الموحدين أبو يعقوب استردادها فى سنة ٥٧٩ هجرية ، ولكنه لم يوفق فى ذلك ، ولم يذكر لنا ابن بسام سنة خروجه من شنترين ، ومهما يكن من الأمر فإنه قد لقي صعوبات جمّة فى النجاة بنفسه ووصل إشبيلية « بنفس قد تقطعت شعاعاً ، وذهب أكثرها التياحاً » ،

(١) صفة جزيرة الأندلس المنتخبية من الروض المعطار صفحة ١١٣ طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ولم يحمد مقامه بها ، فقد كانت سنوق الأدب بها كاسدة وحاملة ، أضيع من قمر الشتاء وقيمة كل أحد ماله ، وقد ظل ابن بسام بهام مجور الفناء ، وحيداً من الخلان ، يعاني أزمة الفقر وسوء الحال حتى د طلع على أرضها شهاب سعدتها وتمسكيتها ، وهبت لها ريح دنياها ودينها ، ملك أملاكها وجذيل عماكها ، وأسعد نجوم أفلاكها ، د فلان ، ثمال المظلوم ، ومال السائل والمحروم ، ومحى العلم ومربع ذويه وحامله ، وعطف عليه هذا الأمير وأخذ بيده فطالع حضرته بكتاب الذخيرة ، وإن كان قد طوى عنا اسمه ولقبه ونسبه وحسبه ، والأرجح أن هذا الأمير المجهول كان في طليعة رجال المرابطين وربما كان أحد أبناء يوسف بن ناشفين نفسه أو أحد افراد أسرته .

وقد ذكر لنا ابن بسام في صراحة مستحبة السبب الذي حمله على تأليف هذا الكتاب وجمع مادته فقال في مقدمته (١) د وما زال في أفقنا هذا الأندلسى القصى إلى وقتنا هذا من فرسان الفنين وأئمة النوعين قوم هم ما هم طيب مكاسر ، وصفاء جواهر ، وعدوبة موارد ومصادر ، لعبوا بأطراف الكلام المشقق لعب الدجى يحفون المؤرق ، وحدوا بفنون السحر المنمق حداء الأعشى بينات المخلق ، فصبوا على قوالب النجوم غرائب المنثور والمنظوم ، وباهوا غر الضحى والأصائل بعجائب الأشعار والرسائل ... إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، وجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعى بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، مرعى القصية ، ومناخ الرذية ، لا يعمر بها جنسان ولا خلد ، لا يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاطنى منهم ذلك ، وأنفت بما هنالك ، وأخذت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات دهرى ، وتلعب أهل بلدى وعصرى ، غيرة لهذه الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة ، مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ، وقديماً

(١) الذخيرة المجلد الأول القسم الأول صفحة ١ . . .

ضيعوا العلم وأهله ، ويارب محسن مات إحسانه قبله ! وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالإحسان ؟ ،

ونرى من ذلك أن الحافظ لهذا الرجل الفاضل على وضع هذا الكتاب هو ما نسميه بلغة عصرنا « النزعة القومية » ، أو « العاطفة الوطنية » ، فقد حرك قوميته وأثار وطنيته شدة عنايه أهل الأندلس بأدب المشاركة وإمهالهم أدبهم القومي مع جودته وامتيازته واستحقاقه للعناية والرعاية ، وقد أراد ابن بسام أن يرد للأدب الأندلسي اعتباره ، ويسترعى الأنظار إلى محاسنه ، ويسجل براعاته وعبقرياته ، على أن هذه النزعة القومية أو الغضببة المضطربة الوطنية لم تضل رأيه ، ولم تفسد عليه حكمه ، وسبب ذلك ثقافته الواسعة ، وإطلاعه الغزير ، وتضلعه من فنون الأدب العربي في متنايع عصوره ، والثقافة الحقة تحد من صولة الهوى ، وتميل بالإنسان إلى القصد والاعتدال ، وكان ابن بسام أعرف بفضل الشعراء والكتاب والأدباء المشاركة من أن يبخسهم حقهم ، وأسلم ذوقاً وأصبح تقديراً من أن ينحل أهل الأندلس والمغرب ما ليس لهم ، وليس أدل على سعة أفق ابن بسام وطلاقة تفكيره من أنه كان لا يرى الإجابة مقصورة على قوم دون قوم ، وأنها لا ينفرد بها الشرق دون الغرب ولا القدماء دون المحدثين ، وهو يرى سخافة الرأي القائل بأن الأوائل لم يتركوا للأواخر شيئاً ، ويقول في مقدمة كتابه (١) : « وكم من نكسة أغفلتها الخطباء ، ورب متردم غادرته الشعراء ، والإحسان غير محصور ، وليس الفضل على زمن بمقصور ، وعزيز على الفضل أن ينكر ، تقدم به الزمن أو تأخر ، ولحى الله قولهم الفضل للبتقدم ! فكم دفن من إحسان ، وأخل من فلان ! ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لصاع علم كثير وذهب أدب غزير . »

فالرجل لا يريد أن ينصف أهل الأندلس وحدهم وإنما يريد أن ينصف فكرة

« الحداثة والتجديد » ويهدم فكرة ترجيح القدامى على المحدثين لمجرد كونهم قد تقدم بهم الزمن وتأخر الزمن بالمحدثين .

وظاهر من طريقة تنسيق الكتاب ومن بعض عباراته الصريحة وإشاراته الواضحة أن المواقف قد اتخذ الشعالي صاحب اليتيمة قدوة له وإماماً ، فجرى على خطته وسار على منهجه ، واصطنع السجع كما اصطنعه الشعالي ، واحتفل وتأنق في تقديم الكتاب والشعراء والإشارة إلى محاسنهم والتنويه ببراعاتهم احتفالاً الشعالي وتأنقه في الحديث عن شعراء اليتيمة وكتابها والإشادة بذكورهم ، وقد كان الشعالي مؤلفاً بارعاً له كتب كثيرة في موضوعات مختلفة جزيلة الفائدة تدل على تمكن ، وتم على حياة أوقفت على البحث والتصنيف ، وأما ابن بسام فإنه لا أعرف له غير كتاب الذخيرة ، والظاهر أنه استغرق جهده واستأثر بوقته ، وبخاصة لأن الكثيرين ممن ذكرهم في كتابه لم تكن لهم أخبار مكتوبة ، ولا أشعار مجموعة ، ولا رسائل مفيدة ، تفسح له طريق الاختيار ، وقد اضطره ذلك إلى البحث الطويل والاستقصاء الشاق ، ويبدو لي أن الشعالي كان على فضله وعلمه وسعة اطلاعه أكثر خضوعاً لأحكام القداماء من ابن بسام ، وأنه كثيراً ما يتخذ به البرج ويحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، وأما ابن بسام فإنه نافذ النظر ، سليم الذوق ، بارع الناقد ، دقيق الملاحظة ، لا يتخذ به الطلاء المموه ، ولا تفضل تفكيره الألفاظ الضخمة المدوية أو الطنطنة العالية .

وقد قسم كتابه أربعة أقسام باعتبار الأقاليم كما قسم الشعالي كتابه باعتبار الأقاليم ، قسم لقرطبة وما يصادفها من وسط الأندلس ، وقسم لإشبيلية وما اتصل بها من بلاد غرب الأندلس ، وقسم لبليسية وما يليها من شرق الأندلس ، وأفرد القسم الرابع لمن طرأ على شبه الجزيرة في المدة المورخية من أديب وشاعر وكاتب ، ووصل بهذا القسم ذكر طائفة من مشهورى عصره ممن نجموا بإفريقية والشام والعراق ومصر ، وصرح بأنه ذكر هؤلاء إلتناءً بأبي منصور الشعالي في اليتيمة .

وقد اختص بعنايته أخبار الملوك والأمراء والرؤساء وتأثيرهم في الأدب كما فعل الثعالبي والفتوح بن خاقان وغيرهما من مؤرخي الأدب ، ليوضح العلاقة بين الأدب والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة ، وتأثير تلك الأحوال في اتجاهات الأدب ومشاعر الشعراء والكتاب وإنتاجهم الفني ، وهو في هذه الناحية يفضل الثعالبي وغيره من مؤرخي الآداب لأنه لا يكتفى بالأخبار العامة والملاحظات العارضة ، وإنما يقف وقفات طويلة ، ويفصل ويدقق ، ويتحرى ويتثبت ، ويأتى بالفوائد التاريخية القيمة ، ويستقى الأخبار من منابعها الأصلية ، وقد آمن بالمنهج التاريخي في الأدب والنقد ، وأخذ به وعمل في حدوده قبل أن يعرف هذا المذهب في القرن التاسع عشر ، وترسم حدوده ، وتفصل طرائقه ، وحرصه على التحرى والاستقصاء في هذا الموضوع جعله يرجع إلى المؤرخين الثقات ويستشيرهم ، وينقل عنهم ، ويستمد منهم ، وكان من حسن التوفيق أنه اعتمد على شيخ مؤرخي الأندلس وزعيمهم غير منازع المؤرخ الأندلسي الذائع الصيت ابن حيان ، وهو مؤرخ معروف بالصدق ودقة التحرى والصراحة واستقلال الرأي مع براعة الأسلوب وطرافته والمقدرة الفائقة في تصوير الحوادث ووصف الرجال والأعمال ونقدها ، وهو يكثر من النقل عنه ويطيل في بعض المواقف إطالة غير مملولة ، بل أعلها إطالة مفيدة شائقة ، لأن ابن حيان يعرف كيف يجتذب القارئ في رواية الأخبار ، وعرض الحوادث ، والتحدث عن الرجال ، وقد أشار ابن بسام إلى عنايته بالمنهج التاريخي في الأدب بقوله (١) «وتحللت ما ضممته من الرسائل والأشعار بما اتصلت به أو قيلت فيه من الوقائع والأخبار ، واعتمدت المائة الخامسة من الهجرة فشرحت بعض محنها ، وجلوت وجوه فتها ، وأحصيت علل استيلاء طوائف الروم على الأقاليم ، وألمعت بالأسباب التي دعت ملوكها إلى خلعهم ، واجتثاث أصلهم وفرعهم ، وعبرت عن أكثر ذلك بلفظ يتبع الهم بين الجوانح ، ويحل العصم سهل الأباطح »

(١) الذخيرة القسم الأول من المجلد الأول صفحة ٧ .

وعولت في ذلك على تاريخ أبي مروان بن حيان ، فأوردت فصوله ، ونقلت جملة وتفصيله ، فإذا أعوزني كلامه ، وعزني سرده ونظامه ، عكفت على طلي البائد ، وضربت في حديدى البارد ، على حفظ قد تشعب ، وحظ من الدنيا قد ذهب .

وهو كلام يدل على ضراحة الرجل وتواضعه واعتداله ، ولو لم يكن من مزاي كتابه سوى عنايته بالمحافظة على الكثير من نصوص تاريخ ابن حيان الذى فقد الكثير مما دجته يراعه ووعاه علمه لكشفه ذلك فضلا ونبلا ، ولكان ذلك وحده من دواعي الحرص على كتابه والرغبة فى الاطلاع عليه ، والاستمتاع بما فيه من مادة طلية ، وأخبار معجبة شائقة .

ولابن بسام استدرأكات وتعليقات على بعض أبيات الشعر التى يذكرها والأخبار التى ينقلها تدل على ضلوعه وكفايته وسعة اطلاعه ، والأسجاع القوية التى يقدم بها الكتاب والشعراء لا تخلو من مبالغة واضحة ، وكانت المبالغة آفة من آفات عصره والعصور التى تلت ، ولكنها لا تخلو فى الوقت نفسه من صدق نظر وقوة تمييز ، ومحاولة لتحديد المواهب ووصف المالكات ، وفى الأجزاء المطبوعة من الكتاب لمحات من أخباره وأحواله ، من ذلك ما رواه عن اجتماعه بالوزير ابن عبدون وهو قوله (١) «اجتمعت بالوزير أبى محمد عبد المجيد بن عبدون أول لقائى له بشنترين فى جملة أصحاب المتوكل ، فأول مجلس اجتمعت معه فيه وسمع بعض الإخوان يدعونى باسمى فقال لى «أنت على بن بسام حقا ؟ قلت «نعم» قال «أو تهجو حتى الآن أباك أبا جعفر وأخاك جعفرا ؟ فقلت : «وأنت أيضا عبد المجيد؟ فقال «أجل» قلت «وحى الآن فىك ابن منذر يتغزل؟ فضحك من حضر لهذا الجواب الحاضر» وقد ذكر له المقرئ فى النسخ بعض أبيات من الشعر منها قوله يخاطب أبا بكر بن عبد العزيز :

أبا بكر (٢) المجتبى للدب رفيع العباد قريع الحسب

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول صفحة ١٢٠ .

(٢) نفح الطيب الجزء ٥ صفحة ٩ .

أياجن فيك الزمان الخئون ويعرب عنك لسان العرب
ولأن لم يكن أفقنا واحداً فينظمننا شمل هذا الأدب
ونظمه دون نثره كما لحظ المقرئ ، وقد مدحه أبو بكر بن عبادة بأبيات
يقول منها .

ياهنيفا^(١) على السماكين سام جزت خصل السباق عن بسام
إن تحك مدحة فأنت زهير أو تشبب فعروة بن حزام
أو تباكر صيد المها فابن حجر أو تبسكي الديار فابن خندام
أو تنم الزمان وهو حقيق فأبو الطيب البعيد المرامى
وكتاب الذخيرة كاف في التنويه بفضل ابن بسام وتخليد اسمه . وقد توفي
سنة ٥٤١ هجرية .

الطراطوشى أو المؤرخ السياسى

كان اليونانيون القدامى ينظرون فى تفكيرهم الفلسفى إلى السياسة والأخلاق من حيث هما شىء واحد ، فمشكلة البحث عن طبيعة الحياة الصالحة للفرد ومشكلة معرفة المبادئ المسيطرة على اجتماع الأفراد فى المجتمع أو التى يجب أن تسيطر على اجتماعهم كانتا عند اليونانيين وجهين لمسألة واحدة ، وكانوا يقولون أنك لا تستطيع أن توفق فى علاج إحدى هاتين المشكلتين دون أن تبحث المشكلة الأخرى وتتهدى إلى موقف خاص حيالها ، فليس فى وسع إنسان أن يقرر ماهو أحسن نظام للمجتمع دون أن يفكر فى حياة الأفراد وسبل إسماعهم ، وآراء أفلاطون فى هذه الناحية تطابق آراء أرسطو .

وجرى التفكير الاجتماعى والفلسفى على هذا النمط حيناً طويلاً من الدهر ، ولكن فى عهد إحياء العلوم حدث صدع فرق بين الاثنين ، فاستقلت السياسة عن الأخلاق وانفصلت الأخلاق عن السياسة ، ويعمل ذلك الفيلسوف الإنجليزى چود فى كتابه عن فلسفة الأخلاق والسياسة بأن التفكير الرومانى قد حافظ على هذه الوحدة ، ولكن المسيحية كانت ترمى إلى جعل أساس الحياة الإنسانية فى العالم الآخر لا فى هذا العالم ، فمدينة الله ، هى المقر الروحى للإنسان لاد مدينة الدولة ، ومن ثم عملت من بادية الأمر على إيجاد هذا التمييز ، وتأثير البروتستانتية أصبح هذا التمييز نوعاً من التفريق بينهما ، ومن ثم ترى التباعد بين موضوع السياسة وموضوع الأخلاق منذ عهد الإصلاح ، فالأخلاق تتناول معنى كلبى الخير والشر ومصادر العمل الصالح وطبيعة الالتزام الأدبى ومصدره ومعنى الحق والباطل وأمثال هذه المسائل ، واكتفت السياسة بتناول البحث عن أصل المجتمع ، وما هى الحاجات البشرية التى دعت إليه وما هى المبادئ المسيطرة عليه ؟ وعملت على البحث فى ضوء هذه المبادئ عن أحسن أنواع الاجتماع

الإنسانى ، وهل هو حكومة الفرد الأوتقراطية أو حكومة الأقلية الارستقراطية ، أو الحكومة الديمقراطية القائمة على التمثيل الانتخابى ؟ فإذا كانت حكومة الأقلية هى خير أنواع الحكم فما هى المؤهلات التى يجب أن تتوفر فى الصفوة المختارة التى تنهض بأعباء الحكم ؟ وإذا كانت حكومة الأكثرية فما هى الوسائل الكفيلة بصحة الاختيار وصدق التمثيل ؟ وما هى الضمانات التى تجعل النواب لا يسيئون استعمال سلطتهم ؟ وما هى حقوق الفرد فى علاقته بالدولة ؟ وما هى حدود سلطان الدولة على الفرد ؟ وقد كانت هذه المسائل وأشباهها تبحث بحثاً سياسياً خالصاً إلى حد كبير لا أثر فيه للبحوث الأخلاقية ، ويتمثل ذلك فى كتابات الفلاسفة السياسيين أمثال هوبز ولوك وروسو وهيجل وماركس وسبنسر ، فتفكيرهم السياسى يكاد يكون مستقلاً عن تفكيرهم الأخلاقى .

ولكن منذ أوائل القرن العشرين طرأ تغيير هام على ذلك ، وبدأ التفكير السياسى والتفكير الأخلاقى يتقاربان ويتلاقيان ، وطويت مسافة الخلاف بينهما ، والفكرة السائدة فى العصر الحاضر أن الحياة الصالحة للفرد لا يمكن أن تتوفر أسبابها إلا فى المجتمع الصالح ، فصلاح الفرد وسعادته متوقفان على حالة المجتمع ، وحالة المجتمع قائمة على حالة أفراده ، وبذلك تتلاقى السياسة والأخلاق ، ومن عيوب النظم الفاشية أنها ترجح جانب الدولة ومصالحها على جانب الفرد ومصالحه ، ومن مزايا النظم الديمقراطية الصحيحة أنها توازن بين مصلحة الدولة ومصلحة الفرد ، ولكن معظم النظم السياسية الحديثة بوجه عام تتجه فى التوفيق بين السياسة والأخلاق .

ومعظم المفكرين السياسيين فى الإسلام لم يروا هذا التفريق بين السياسة والأخلاق الذى ساد إلى حد كبير التفكير الغربى منذ عهد إحياء العلوم إلى أوائل هذا القرن ، وترى ذلك فى تفكير رجل مثل ابن خلدون أو ابن الطقطقى صاحب كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية ، وغيرهما من مفكرى الإسلام ومؤرخيه ، ومن أبرز هؤلاء المفكرين السياسيين وألمعهم أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى

مؤلف كتاب «سراج الملوك» ، وهو كتاب حافل بالأخبار الشائقة ، والنوادر الطريفة ، والتقصص الممتعة ، والنظرات السديدة والملاحظات القيمة ، والحكم الجامعة ، وهو ثمرة تجرته المستفيضة ، وعلمه الغزير ، واطلاعه الواسع ، وتضلعه من التاريخ والفقه والشريعة والآداب الإسلامية ، وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى كتاب الطرطوشى فقال فى غضون كلامه عن العمران البشرى والاجتماع الإنسانى (١) « وكذلك حوم أبو بكر الطرطوشى فى كتاب «سراج الملوك» وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله ، ولكنه لم يصادف فيه الرمية ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ، وإنما يبوب الباب للمسألة ، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار ، وينقل كلمات متفرقة لحكام الفرس وغيرهم من أكابر الخليفة ، ولا يكشف عن التحقيق قناعاً ، ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حججاً ، وإنما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ ، وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ، ولا تحقق مقصده ولا استوفى مسائله ، ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاماً ... » وقد أراد ابن خلدون أن يفخر بعلمه ، وبما أعثره الله عليه من أسباب التوفيق ، فلم ير بأساً من نقد الطرطوشى والتعالى عليه ، ولم تكن غاية الطرطوشى علمية خالصة مثل ابن خلدون فى مقدمته ، وإنما كان يريد أن يعرض ملاحظاته ومشاهداته عرضاً فنياً لتؤثر فى النفوس ، وتخلب الألباب ، وتتغلغل إلى القلوب ، ولذا كان يستكثر من الأقاصيص العجيبة ، والنوادر المتخيرة ، وحقيقة أن أبا بكر لم يكن ندأ لابن خلدون فى القدرة على التقصى والتماس العلل والأسباب ، ولكن هدفه لم يكن هدف ابن خلدون ، ومن الإنصاف فى النقد أن ننظر إلى مدى توفيق المؤلف فى إصابة الأهداف التى رعى إليها ، ومدى نجاحه أو إخفاقه فى إصابة هذه الأهداف ، وأعتقد أن كتاب سراج الملوك يرجح إذا وزناه بهذا الميزان لأنه حقق الهدف الذى قصده مؤلفه .

والطرطوشى نسبة إلى مدينة طرطوشة إحدى مدن أسبانيا ، وقد وصفها صاحب الروض المعطار (٢) بأنها واقعة فى سفح جبل ، وأن بجبالها خشب الصنوبر

(١) مقدمة ابن خلدون طبع مصر صفحة ٤٣/٤٤ .

(٢) الروض المعطار طبع مصر صفحة ١٢٤ .

الذى تتخذ منه صواري السفن ، وبينها وبين البحر المتوسط ما يقرب من عشرين ميلا ، وبأنها وسط تجارى هام ، وقد ولد بها فى سنة ٥١ هجرية ، وتلقى بها علوم الأدب والدين والشريعة ، ثم صحب القاضى أبا الوليد الباجى بسرقسطة وسمع منه وأجازه أبو الوليد ، وقرأ الأدب على أبى محمد بن حزم بمدينة إشبيلية ، ثم رحل إلى المشرق سنة ٧٦ هجرية وأدى فريضة الحج ، ودخل بغداد فتفقه على أبى بكر الشاشى وأبى محمد الجرجانى ، ودرس فى البصرة ، وسكن الشام مدة ودرس بها ، ثم زار بيت المقدس ، ودخل مصر ، وقضى حيناً من الزمن فى القاهرة ، ثم انتقل منها إلى الإسكندرية ، واستقر بها إلى أن أدركته الوفاة فى سنة ٥٢٠ هجرية ودفن فى ناحية الباب الأخضر ، وقبره معروف بالإسكندرية ، وكان الطرطوشى إماماً زاهداً ورعاً ، متديناً متواضعاً ، متقشفاً متقللاً من الدنيا راضياً منها باليسير ، وله عدة مؤلفات منها مختصر تفسير الثعلبى والكتاب الكبير فى مسائل الخلاف وغيرها ، وكان لهذا العالم الجليل والزاهد المتعبد شعر رقيق ينم على نفس حساسة وشعور مرهف ، من ذلك قوله :

أقلب طرفى فى السماء تردداً	لعلى أرى النجم الذى أنت تنظر
واستعرض الركبان من كل وجهة	لعلى بمن قد شم عرفتك أظفر
وأستقبل الأرواح عند هبوبها	لعل نسيم الريح عنك يخبر
وأمشى ومالى فى الطريق مأرب	عسى نعمة باسم الحبيب ستذكر
وألمح من ألقاه من غير حاجة	عسى لمحة من نور وجهك تسفر

وقد جعله زهده وورعه قوالات للحق ، كارهها للباطل ، شديد التبرم بالظلم طالباً للعدالة نزاعاً إلى الإصلاح ، مؤثراً للنصح والإرشاد والوعظ ، صريحاً فى مخاطبة الرؤساء والحكام ، معتقداً أنه بذلك يؤدي واجبه ويبلغ رسالته .

وقد قدم الطرطوشى مصر فى عهد انحلال الدولة الفاطمية ، وقرب أفول نجمها ، وانطواء سلطانها ، وكان للوزراء الفاطميين فى تلك الفترة السلطة المطلقة ، والنفوذ التام ، ولما وجد الخليفة الأمر الفاطمى أن وزيره الأفاضل بن أمير الجيوش بدر

الجمالى قد استبد بالامر دونه ولم يترك له من الامر شيئاً شعر بالحاجة إلى التخلص منه ، فدبر مكيدة لاغتياله ، وقد قتل الأفضل في سنة ٥١٥ هـ وخلفه في الوزارة أبو عبدالله المأمون بن البطائحي ، ولأمر ما كان الأفضل يكره الطرطوشى ، فلم يرفع حقه ، وقصر في إكرامه ، وربما كان لصراحة الطرطوشى أثر في ذلك ، ولما قتل الأفضل وولى بعده المأمون البطائحي أكرم الشيخ إكراماً كثيراً ، والظاهر أن الطرطوشى أراد أن يقابل هذا الإكرام والصنيع الحسن بالتقدير الذى يستطيعه ، فألف كتابه المسمى « سراج الملوك » ، وأهداه إليه ، وأشار إلى ذلك في مقدمته بقوله « ولما رأيت الأجل المأمون تاج الخلافة وعز الإسلام ، فخر الأيام ، نظام الدين خالصة أمير المؤمنين أبا عبد الله محمد الآمرى ، قد تفضل الله به على المسلمين ، فبسط فيهم يده ، ونشر في صالح أحوالهم كلمته رغبت أن أخصه بهذا الكتاب ليدكر فضائله ومحاسنه ما بقى الدهر » ، ثم تمثل بهذين البيتين

الناس يهدون على قدرهم لكسنى أهدى على قدرى
يهدون ما يفنى فأهدى الذى يبقى على الأيام والدهر

وعلى الطرطوشى إهداءه الكتاب للبطائحي بقوله « إن العلم عصمة الملوك والرؤساء ومعقل السلاطين والوزراء ، لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم ، ويصدهم عن الأذى ، ويعطفهم على الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويكرموا حملته ويستبطنوا أهله ،

وقد كسر الكتاب على أربعة وستين فصلاً ، فالكتاب الأول مثلاً في مواعظ الملوك ، والباب الثانى في مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين ، وعقد فصلاً لمنافع السلطان ومضاره ، وفصلاً آخر لمعرفة الخصال التى هى قواعد السلطان ، واختص الوزراء بأحد الأبواب ، وتكلم عما يصلح الرعية من الخصال ، وعن علاقة السلطان بالجنود وبيت المال ، وما إلى ذلك من الموضوعات التى تتصل بسياسة الملك وتدير أمور الرعية ، ومؤلفنا الفاضل على نقيض مكيافلى ، فقد وجد الأحوال فى مصر سيئة ، وقد تكفل المؤرخون بوصف سوء حالة مصر فى ذلك

العهد المظلم ، وأراد أن يطب لهذه الأحوال السقيمة فلم ير خيراً من تحرى العدل في السياسة والتعلق بالخصال الحميدة ، وأكثر من ذكر الشواهد والأمثلة والأحاديث والحكم والأخبار التي تؤيد وجهة نظره ، وتوضح سداد رأيه ، وعنده أنه إذا أحسن الأمير ورجاله السياسة واستظاوا بالمبادئ القويمة السامية توطد الملك ووصلحت أحوال الرعية ، أما مكيا في فإن سوء الأحوال في إيطاليا جعله يفكر في علاج لإصلاحها وإنهاضها من كبوتها ، فدلّه تفكيره على أن هذا العلاج غير ميسور إلا إذا وجدت الحكومة القوية التي تستطيع حسم الفوضى وتوحيد الكلمة ، وأباح لأميره أن يختار السبل المفضية إلى ذلك دون أن يشغل باله بمراعاة الالتزامات الأخلاقية ، وهو صريح في فصله الأخلاق عن السياسة فصلاً تاماً لا تردد فيه ولا جمجمة ، وربما كان لحياة الرجلين الخاصة أثر في توجيه تفكيرهما ؛ فقد كان مكيا في رغم مكانته الأدبية الممتازة وإخلاصه لقضية بلاده رجلاً دينوياً حريصاً على المتعة كسائر أبناء عصره ، أما الطرطوشي فكان رجلاً أخلاق وفضيلة وطهر وزهد ونقاء قبل كل شيء ، وفي رأيه المتواضع أن آراء الطرطوشي أصح في المدى المتطاوّل والنتائج البعيدة من آراء مكيا في ومن يلقون لغه وبأخذون بوصاياه ونصائحه .

وأثر الزهد والروح الدينية واضح في الكتاب ، وقد روى عن نفسه في أحد فصول الكتاب فقال : « أحكى لك أمراً أصابني طيش عقلي ، وبلبل عزمي ، وقطع نياط قلبي ، فلا يزال مرآه حتى يواريني التراب ، وذلك أنني كنت يوماً بالعراق وأنا أشرب ماء ، فقال لي صاحب لي وكان له عقل : يا فلان لعل هذا الكوز الذي تشرب فيه الماء كان إنساناً يوماً من الدهر ، فمات فصار تراباً ، فاتفق للفخارى أن أخذ تراب القبر فصيره خزفاً وسواه بالنار فانتظم كوزاً كما ترى ، وصار آنية تمتن وتستخدم بعد ما كان بشراً سوياً يأكل ويشرب وينعم ويلذ ويطرب ، فإذا الذي قاله من الجائزات ، فإن الإنسان إذا مات عاد تراباً كما كان في النشأة الأولى ثم قد يتفق أن يحفر لجده ويعجن بالماء ترابه فيتخذ منه آنية تمتن في البيوت

أو لبنة تبني في الجدار أو يطين بها سطح البيت ، أو يفرش في الدار ويوطأ بالأقدام ، ويسترسل في تحليل هذه الفسكرة وتقليبها على جوانبها المختلفة ، ويقول في نهاية تحليله : أليس في هذا ما أذهب العقول وطيش الحلوم ، ومنع اللذات وهان عنده مفارقة الأهلين والأموال واللاحق بقتل الجبال ؟ أليس في هذا ما يصغر أمر الدنيا وما فيها ؟ أليس في هذا ما زهد في اللذات وسلى عن الشهوات ؟ ، وهذا كلام يوضح لنا أن الطرطوشى كان مفكراً متأثراً بطبيعته الزاهدة ومزاجه الصوفى . فإن غيره من الناس الذين يختلفون عنه في المزاج والطبيعة قد ينتهى بهم تفكيرهم إلى نتيجة مغالطة للنتيجة التى انتهى إليها الطرطوشى ، فالرجل الأبيقورى المزاج مثلاً يرى أنه مادام كل شيء إلى زوال وفناء فلبساذا لا نغتم الحاضر ونعتصره ونستمتع به إلى أقصى حدود الاستمتاع كالشاعر الأندلسى الذى قال :

لا تنم واغتم مسرة يوم إن تحت التراب نوما طويلا

فإن النوم الطويل تحت التراب لم يجعل هذا الشاعر يزدري طيبات الحياة ويعرض عنها ويزهدها فيها ، بل أغراه بطلب المتعة والتماس اللذة ، وزين له الحرص عليها ، ولكن وجهة نظر الطرطوشى مع ذلك جديرة بالتأمل والتقدير . وقد روى لنا في كتابه أحد موافقه من الوزير صاحب الحول والطول الأفاضل ابن أمير الجيوش فقال : دخلت على الأفاضل بن أمير الجيوش وهو ملك مصر فقلت : سلام عليكم ورحمة الله ، فرد السلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً ، وأكرم لكراماً جزيلاً ، وأمرنى بدخول مجلسه والجلوس فيه ، فقلت : أيها الملك إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلاً عالياً شامخاً ، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً ، وملسك طائفة من ملكه ، وأشركك فى حكمه ، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك ، وأمر الله تد أزم الورى طاعتك فلا يكون أحد أطوع لله منك ، وليس الشكر باللسان ، ولكنه بالفعل والإحسان ، واعلم أن هذا الذى أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يديك بمثل ما صار إليك ، فائق الله فيما خولك من هذه

الامة ، فإن الله سائلك عن النفير والقطمير والفتيل ، وأنهى كلامه بقوله
« فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم ، أعانك الله على نصر المظلوم وجعله
كهفاً للملوك وأماناً للخائف ، وختم كلامه للأفضل بهذا البيت :

والناس أكيس من أن يحمدا رجلا حتى يروا عنده آثار إحسان
وربما كان من خير فصول الكتاب الباب الخاص بفضل الولاة والقضاة إذا
عدلوا وفيه يقول « ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة ، كما أن خيره يعم . كذلك
ليس دون رتبة السلطان الجائر الشرير رتبة لشرير ، لأن شره يعم ، وكما أن
بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد
وتعترف المعاصي والآثام ، وذلك لأن السلطان إذا عدل انتشر العدل في الرعية ،
وتعاطوا الحق فيما بينهم ، وإذا جار السلطان انتشر الجور وعم العباد ، واضمحلت
المروءات ، وفشت المعاصي ، وذهبت الأمانات ، وتضعفت النفوس ... ،
ويصف في أحد الفصول خطورة موقف السلطان وصفاً دقيقاً فيقول « الخلق
في شغل عنه وهو مشغول بهم ، والرجل يخاف عدواً واحداً وهو يخاف ألف
عدو ، والرجل يضيق بتدبير أهل بيته وإيالة ضيعته ، وهو مدفوع لسياسة أهل
ملكته ، وكلما رتق فتقا من حواشي ملكته انفتق آخر ، وكلما لم منها شعماً
رت آخر . »

ويعمل وجود الحكومة بقوله « جبلت الخلائق على حب الانصاف وعدم
الإنصاف ، ومثلهم بلا سلطان كمثل الحوت في البحر يزدرد الكبير الصغير فتى
لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر . »
ويمقت الطرطوشى المسكر والدهاء في السياسة ولذلك يقول « من صرف فضل
عقله إلى الدهاء والمسكر والشر والحيل والخديعة كالحجاج وزباد وأشباههما
فندموم . »

ومن أقواله الحكيمة البارة « إن الرعية إذا قدرت على أن تقول قدرت
على أن تفعل فاجتهد ألا تقول تسلم من أن تفعل . »

ولم ينتفع رجال الدولة الفاطمية بكلماته الحقة ، ونصائح النخبة ، فقد كانت دولتهم تخب إلى السقوط ، وتسرع إلى النهاية المحتومة ، فذهبت كلماته صرخة في واد ، ولكنها كأكثر كلمات الحكماء ، ونظرات المفكرين المهتمين ، إن كانت تذهب مرة مع الريح فقد تذهب مرة أخرى بالآوتاد . وفي اعتقادي أن كتابه « سراج الملوك ، من الكتب الجديرة بأن تعرف ويلتفت إليها لما فيه من أدب وحكمة ، ونقد وسياسة ، وتاريخ وتجارب ، وتوجيه وإرشاد ، وكل ذلك في أسلوب رفيع وتأنيق بديع .

عبد الواحد المراكشي أو أحد مؤرخي الدول

الشيخ عبد الواحد المراكشي مؤلف كتاب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ، ليس من الأعلام أو البارزين سواء في الأدب أو التاريخ أو السياسة المعروفين بكثرة تأليفهم ووزارة عليهم ، وبعد مطارح أفكارهم ، ولا أعرف له مؤلفاً آخر غير هذا الكتاب الذي لم يكتبه بدافع من نفسه وإنما كتبه استجابة لرغبة رجل من أعيان الدولة وأصحاب النفوذ والصولة توالى عليه نعمه ، وأخذ بضيقه من مريض الفقر والخل ، فقد سأله هذا الرجل المنعم المتفضل « املأ أوراقك تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره وشي من سير ملوكه ، وخصوصاً ملوك المصامدة بنى عبد المؤمن من أمد ابتداء دولتهم إلى سنة ٦٢١ هجرية ، فلم ير الشيخ عبد الواحد بدأ من إسعافه والمسارة إلى ما فيه رضاء ، لأنه كان الغاية التي يجرى إليها والبعية التي يثابر أبدأ عليها كما أكد لنا في الكلمة الموجزة التي قدم بها لكتابه .

وكتاب الشيخ عبد الواحد قيم وفد في موضوعه وفي منهجه وأسلوبه ، وهو وإن لم يكن من ثول المؤرخين ، ومبرزى الكتاب المعروفين ، فإنه مؤرخ محقق جدير بالثقة به والاعتماد على أحكامه ، واحترام آرائه ونظراته ، وتقدير نقداته وملاحظاته ، يضاف إلى ذلك أنه مؤرخ رضى الأخلاق ، جهم التواضع ، خفيف الظل ، قريب من القلب ، محب إلى النفس ، في أسلوبه بساطة ويسر وسهولة وفي تحقيقه صراحة خلاصة ، ونزاهة جذابة ، وكل هذه الصفات مجتمعة متوافرة تجعل قراءة كتابه أشبه بقراءة قصة شائقة مستمدة من واقع الحياة ، قائمة على حقائق التاريخ ، والشيخ عبد الواحد مع صراحته وقدرته على أن يصدع برأيه ويدلى بحجته ، بعيد عن الادعاء والتفخيم ، تشعر وأنت تسايه بأنك تستمع إلى رجل حسن الصبغة ، دمث الأخلاق ، طيب النفس ، لا يفرض عليك نفسه ،

ولا يحاول أن يرغمك على الإعجاب به ، والإشادة بمواهبه وملكاتة ، والخضوع لآرائه وأحكامه ، بل هو على تقيض ذلك ، ولعله يسرف بعض الإسراف في حرمان نفسه من حقها والتزول بها دون مستواها ، وإذا كان مما يؤخذ على بعض المؤلفين استطاعتهم وفرط اعتزازهم بما يكتبون ويؤلفون فإن صاحبنا المراكشي قد برى من هذا العيب ، وسلم كل السلامة من هذا النقص ، وضرب للمؤلفين مثلاً شروداً في الاعتدال والاعتزان ، والتواضع وطيب الخلال .

وكتابه فيما أعلم من الكتب القلائل التي تناولت تاريخ دولة الموحدين التي قامت في المغرب وتغلّبت على دولة المرابطين وبسطت سلطانها على المغرب والأندلس ، وكان لها شأن يذكر وأخبار تروى ، وسيرة جديرة بأن تسجل وتعرف ، وقد أخرجت للعالم رجالاً ممتازين وحكاماً قديرين ، منهم عبد المؤمن ابن علي ، وابنه يوسف أبو يعقوب ، ويعقوب بن يوسف ، وغيرهم من أمراء هذه الدولة التي مهد لها وساعد على قيامها رجل غريب الشخصية عجيب الشأن يسمى محمد بن تومرت ، ويلقب بالمهدي . وقد ادعى هذا الرجل أنه المهدي المنتظر ونسب لنفسه العصمة ، وشخصية هذا الرجل في رأي مزيج من التدين والطموح والديجل إلى حد ما ، وقد كان — كما روى لنا عبد الواحد — يدعى علم الغيوب ، وكان يزعم أنه وقع في الشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجفّور من بعض خزائن خلفاء العباسيين ، ويرينا عبد الواحد بوضوح كيف استطاع هذا الرجل بصره ، وقوة إرادته ، وحضور بديته ، ومثانة شخصيته وسعة حيلته أن يهزم ملك المرابطين ، ويقم على أنقاضه تلك الدولة المعروفة باسم دولة الموحدين .

وليس للشيخ عبد الواحد ترجمة معروفة في كتب السير والتراجم والطبقات ، وليس له ذكر في كتب التاريخ المعهودة ، سواء التاريخ الأدبي أو السياسي ، والظاهر أنه أدرك بصادق حسه ونافذ فطنته أنه سيكون من هؤلاء الجنود المجهولين الذين يهمل ذكر أسمائهم التاريخ ، فاحتاط للأمر ، وعز عليه أن تضع أخباره في زوايا النسيان ، وغار حوادث التاريخ ، فذكر لنا في ثنايا كتابه

معلومات نفيسة عن نفسه وميلاده ، ونشأته وأسفاره ، وسعيه في مناكب الأرض وتقلبه في الأوساط المختلفة ، والأمراء البارزين من أهل عصره الذين اتصلت بهم أسبابه ، وأظلمته رعايتهم ، وشملوه بعطفهم ، واختصوه بثقتهم ، وأعجبوا بعلمه وأخلاقه ، حتى توثقت بينه وبينهم المودة والصدقة .

ويرجع المستشرق دوزى أن لقب « محي الدين » قد أضيف إلى اسم عبد الواحد في المشرق ، لأن الألقاب التي تدخل فيها لفظة الدين — كما يقول دوزى — لم تكن تستعمل في المغرب وبلاد الأندلس ، وأغلب من تسموا بذلك من أهل المغرب أو الأندلس اكتسبوا هذا اللقب في أثناء رحلتهم إلى مصر والشرق .

وقد ذكر لنا عبد الواحد أنه ولد في مراکش سنة ٥٨١ هجرية في أول حكم أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب ثالث الأمراء الموحدين ، وهو يقول عن مراکش في كتابه « مراکش آخر المدن بالمغرب » ، وكان الذي اختطها ملك لمثونة تاشفين بن علي ، ثم زاد فيها بعده ابنه يوسف بن تاشفين ، ثم زاد فيها بعدهما علي بن يوسف بن تاشفين ، ثم ملكها المصامدة ، وهم الموحدون فزادوا بها حتى جاءت في نهاية الكبير فهي اليوم طولا وعرضاً قدر أربع فراسخ ، هذا إذا ضمت إليها قصور بني عبد المؤمن ، وأجرى المصامدة فيها مياه كثيرة لم تكن فيها قبل ذلك ، وبنوا فيها قصوراً لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من الملوك ، فصارت بذلك في نهاية الحسن وغاية السجالات كما قال الأول .

ليس فيها ما يقال له كملت لو أنه كمل

وبهذه المدينة مسقط رأسى ، وهى أول أرض مس جلدى ترابها ،

وقد انتقل منها عبد الواحد وهو في التاسعة من عمره إلى مدينة فارس ، وأقام بها إلى أن قرأ القرآن الكريم وجوده ، وروى عن طائفة من علمائها المبرزين في علوم القرآن والنحو والصرف واللغة ، ثم عاد إلى مراکش ، وهو يقول في كتابه إنه ما زال متردداً بين المدينتين حتى عبر البحر إلى الأندلس سنة ٦٠٣ هـ

وبالرغم من أنه ولد في مراكش فهو لا يتعصب لها ، ويؤثر عليها مدينة فاس ، ويقول عنها : ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما اضطرب أمر القيروان بيعت العرب فيها واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت المنصور محمد بن أبي عامر وابنه رحل من هذه ومن هذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة ، فنزل أكثرهم مدينة فاس ، ففى اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها في غاية السكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم ، وما زلت أسمع المشايخ يدعونها « بغداد المغرب » ، وبحق ما قالوا ذلك ، فإنه ليس بالمغرب من أنواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها وما خوذ منها ، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب ، فالرجل منصف كما ترى لا يتعصب لبلد لأنه ولد به ولا يتحامل على غيره لأنه لم يشرف بأن يكون أول أرض مس جلده الطاهر الزكى ترابها .

وقد أدرك بالأندلس جماعة من الفضلاء من « أهل كل شأن » ، على حد تعبيره ، ويحمرى على نهجه في التواضع فيقول : ولم أحصل بحمد الله من ذلك كله إلا معرفة أسمائهم ومواليدهم ووفياتهم وعلومهم . انفردوا دونى بكل فضيلة ، ولا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع . يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم . وقبل رحلته إلى الأندلس وسنه لا تتجاوز الرابعة عشرة لقي في مراكش الوزير الأندلسى أبا بكر بن زهر ، وكان وفد على مراكش لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف وذلك في سنة ٥٩٥ هجرية ، وقد سأله الوزير الأندلسى عن اسمه ونسبه ، ويقول عبد الواحد عن هذا اللقاء : فسميت له وانتسبت ، وتسمى لى هو رحمه الله وانتسب من غير استدعاء تواضعاً منه وشرف نفس ، وتهذيب خلق ، وكان حينذاك قد نيف على الثمانين ، وقد أنشدته هذا الوزير المتواضع المهذب هذه الأبيات الرقيقة التى تعد من مستجاد الشعر .

إني نظرت إلى المرأة إذا جلست فأنكرت مقلتاى كل ما رأنا
 رأيت فيها شيخاً لست أعرفه وكنت أعرف فيها قبل داك فى
 فقلت أين الذى بالأمس كان هنا متى ترحل من هذا المكان متى
 فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة أن الذى أنكرته مقلتاك أتى
 كانت سليمى تنادى يا أخى وقد صارت سليمى تنادى اليوم يا أبنا
 وقد أنحفه الوزير الأندلسى ببعض أخبار الأديب الأندلسى البارع عبد المجيد
 ابن عبدون صاحب القصيدة المشهورة فى رثاء بنى الأفطس من ملوك الطوائف
 بالآندلس ومطلعها :

الدهر يجمع بعد العين بالآثر فما البكاء على الأشباح والصور
 والخبر الذى رواه عبد الواحد بطريقته القصصية البارة نقلاً عن ابن زهر
 يدل من ناحية على قوة ذاكرة ابن عبدون الذى كان كتاب الأغاني لأبى الفرج
 الأصفهاني أيسر محفوظاته ، ومن ناحية أخرى يدل على تعظيم الأندلسيين لرجال
 الأدب وحمله الأقلام .

وكان عبد الواحد يحرص على لقاء نوابغ الرجال واستماع غرائب الأخبار
 وشائق الأنباء ، ويدونها أو يخزننها فى ذاكرته الواعية ، وقد تحدث فى كتابه عن
 شاعر من شعراء فاس اسمه محمد بن حبوس كانت طريقته فى الشعر على نحو طريقة
 ابن هانيء الأندلسى فى اختيار اللفاظ الرائعة والقعاقع الموهلة وإيثار التقدير ،
 وروى لنا أن ابن هذا راعشاً — واسمه عبدالله — قرأ عليه هذه الحكاية من
 خط أبيه . قال (١) « دخلت مدينة شلب ولى يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها
 شيئاً ، فسألت عمن يقصد إليه فيها ، فدلنى بعض أهلها على رجل يعرف بابن الملح
 فعمدت إلى بعض الوراقين فسألته سخاء ودواة فأعطانيها ، فكتبت أبياناً
 أمتدحه بها ، وقصدت داره ، فإذا هو فى الدهليز ، فسلمت عليه فرحب بى ورد
 على أحسن رد ، وتلقانى أحسن لقاء وقال « أحسبك غريباً » قلت نعم . فقال لى

« من أى طبقات الناس أنت ؟ » فأخبرته أنى من أهل الأدب ، من الشعراء ، ثم أنشدته الأبيات التى قلت ، فوقعته منه أحسن موقع ، فأدخلنى إلى منزله وقدم إلى الطعام ، وجعل يتحدثنى . فإريت أحسن محاضرة منه ، فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقاً حتى وضعه بين يدى . ففتحته فأخرج منه سبعائة دينار مرابطة فدفعتها إلى وقال « هذه لك ! » ثم دفع إلى صرة فيها أربعون مثقالاً وقال « هذه من عندى » فتعجبت من كلامه وأشكك على جداً ، وسألت من أين كانت هذه لى ؟ فقال لى « سأحدثك : إنى أوقفت أرضاً من جملة مالى للشعراء عليها فى كل سنة مائة دينار ، ومنذ سبع سنين لم يأتنى أحد لتوالى الفتن التى دهمت البلاد فاجتمع هذا المال حتى سيق إليك ، وأما هذه فن حرم مالى » يعنى الأربعين ديناراً قد دخلت عليه جائعاً فقيراً وخرجت منه شبعان غنياً .

وفى سنة ٦٠٣ لقي فى مراکش يحيى ابن الفيلسوف الأندلسى الكبير أبى بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة الإسلام المحدثين ، ومؤلف رسالة « حى بن يقظان » وقد أسمعه يحيى هذا بعض أشعار أبيه الفيلسوف فى الحكمة والزهد ، ولقى كذلك بعض تلامذة ابن رشد ، وروى ما سمعه عنهم من أخبار هذا الحكيم وعلاقته بابن طفيل وكيف شجع ابن طفيل ابن رشد على تلخيص كتب أرسطو ، ووصف لنا مشول ابن رشد بين يدى أمير المؤمنين يوسف أبى يعقوب نقلاً عن أحد تلامذته والحديث الذى دار بينهما بحضور ابن طفيل ، وقد تحدث فى موضع آخر من الكتاب عن محنة ابن رشد فى عهد أمير المؤمنين أبى يوسف يعقوب ابن يوسف ويقول عنها (١) « كان لهذه النكبة سببان جلى وخفى ، فأما سببها الخفى وهو أكبر أسبابها فإن الحكيم أباً الوليد — رحمه الله — أخذ فى شرح كتاب الحيوان لأرسطاطاليس صاحب كتاب المنطق ، فهدبه وبسط أغراضه وزاد فيه ما رآه لا يثق به ، فقال فى هذا الكتاب عند ذكر الزرافة وكيف تتولد وبأى

أرض تنشأ ١ ، وقد رأيتها عند ملك البربر ... ، جارياً في ذلك على طريقة العلماء في الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم ، غير ملتفت إلى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحילו الكتاب من الإطراء والتعريض وما جانس هذه الطرق ، فكان هذا بما أحنتهم عليه . غير أنهم لم يظهروا ذلك ، وفي الجملة فإنها كانت من أبي الوليد غفلة ، فقد قال القائل « رحم الله من عرف زمانه ففاته ، ومين مكانه فكأنه ! » وما أحسن ما قال الأول :

وأنزلني طول الندي دار غربة إذا شئت لاقيت الذي لا أشا كله
لحامقته حتى يقال سجيحة ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

واستمر الأمر على ذلك إلى أن استحكم ما في النفوس ، ثم إن قوماً ممن ينابونه من أهل قرطبة ويدعى معه الكفاءة في البيت وشرف السلف سعوا به عند أبي يوسف ، ووجدوا إلى ذلك طريقاً بأن أخذوا بعض تلك التلاخيص التي كان يكتبها ، فوجدوا فيها بخطه حاكياً عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم « فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة ... ، فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة ، فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة ، فلما حضر أبو الوليد — رحمه الله — قال له بعد أن نبذ إليه الأوراق « أخطك هذا ؟ » فأنكر ! فقال أمير المؤمنين « لعن الله كاتب هذا الخطأ ، وأمر الحاضرين ببلعنه ، ثم أمر بإخراجه على حالة سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلم في شيء من هذه العلوم ، وكتبت عنه الكتب إلى البلاد بالتقدم إلى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة ، وبإحراق كتب الفلاسفة كلها ، إلا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة ، فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد وعمل بمقتضاها ، ثم لما رجع إلى مراکش نزع عن ذلك كله ، وجنح إلى تعلم الفلسفة ، وأرسل يستدعي أبا الوليد من الأندلس إلى مراکش الإحسان إليه والعفو عنه ، فحضر أبو الوليد — رحمه الله — إلى مراکش فمرض بها مرضه الذي مات منه رحمه الله وكانت وفاته بها في آخر

سنة ٥٩٤ هـ وقد ناهز الثمانين رحمه الله ثم توفي أمير المؤمنين أبو يوسف بعد هذا التاريخ ببسبر وكانت وفاته في غرة صفر في سنة ٥٩٥ هـ .

وفي سنة ٦٠٥ حينما كان عبد الواحد بالآندلس قدمه صديق له اسمه محمد بن الفضل — وكان من الكتاب — إلى الأمير ابراهيم بن أمير المؤمنين أبي يوسف ، وكان هذا الأمير في ذلك الوقت حاكم لإشبيلية ، ويقول عبد الواحد عن هذا الأمير (١) ، وهو خير ولد أبي يوسف وأجدرهم بالأمر لو كانت الأمور جارية على إشار الحق واطراح الهوى ، لا أعلم فيهم أنجب منه ، وكان لى — رحمه الله — محباً وى حفيماً ، وصلت إلى منه أموال وخلع جمة غير مرة ، لم أعرفه أيام وزارته ؛ لأننى كنت إذ ذاك حديث السن جداً كما ناهزت الاحتلام ؛ وإنما كانت معرفتى به حين ولوه لإشبيلية فى سنة ٦٠٥ ، وقد أنشده عبد الواحد أول يوم لقيه قصيدة مدحه بها أولها :

لكو على هذا الورى التقديم وعليهمو التفويض والتسليم
الله أعلام وأعلى أمره بكو وأنف الحاسدين رغي
احييتوا المنصور فهو كئانه لم تفتقده معالم وعلوم
ومحارب ومنابر ومحارب وحى يحاط وأرمل ويتم
ويقول عبد الواحد فى كتابه إنه لم يبق على خاطره من هذه القصيدة سوى أبيات قليلة لتقدم عهدا وقلة اعتناها بها ، وإن الأمير قد استحسناها وبالغ فى الثناء عليها تفضلاً منه وسؤدداً وجرياً على سنن الأجواد ، هذا كله مع ركاكتها وقلة انطباعها وظهور تسكفها .

ونرى من هذا الكلام أن عبد الواحد لم يكن مفتونا بشعره مثل الكثيرين من يتعاطون نظم الشعر ، ولما أوافقه على تواضعه فى هذه المرة ، وشعر عبد الواحد بوجه عام لا يتم على شاعرية أصيلة ولا ملكة فنية ممتازة ، والظاهر أن الأمير

إبراهيم لم يرقه من القصيدة إلا ما تضمنته من مدح ، على أننا نحب أن نقف قليلاً عند قول عبد الواحد عن الأمير إبراهيم إنه « أجدرهم بالأمر — من أولاد أبي يوسف — لو كانت الأمور جارية على إيثار الحق وأطراح الهوى ، ومعنى ذلك أنه كان يرى الأمير إبراهيم أحق بأن يكون أمير المؤمنين من أخيه أبي عبد الله محمد الناصر الذي ولى أباه في الإمارة ، وقد اتصل عبد الواحد بأمير آخر من أمراء أسرة عبد المؤمن ، وهو الأمير يحيى بن أمير المؤمنين أبي يعقوب ويقول عبد الواحد (١) « إنه كان صديقاً لى ومن جهة تلقيت أكثر أخبارهم (أى أخبار أمراء الموحدين) لم أر فى الملوك ولا فى السوق مثله رحمة الله عليه ، وما استجزت لفظة الصداقة مع أن الواجب لفظة الخدمة إلا لما كان رحمه الله يكتب إلى : أخى وصديقى فى بعض الأوقات وولدى فى بعضها ، اجتمعت عندى بخطه رقاع كثيرة خلع على فيها فضله وحلافى بما لم أكن أستحقه .

وفى آخر يوم من سنة ٦١٣ ودع عبد الواحد صديقه الأمير إبراهيم وودع المغرب والأندلس جميعاً وركب البحر إلى الشرق ، وعمره يومئذ اثنتان وثلاثون سنة ، ويقول قبل الإشارة إلى هذا الوداع (٢) « ثم علمت حالى عنده — إلى أن كان يقول فى أكثر الأوقات « والله لى لاشتاقك إذا غبت عنى أشد الشوق وأصدقته ! ثم لم تزل حالى معه على هذا إلى أن فارقت — رحمة الله عليه — وهو وال على إشبيلية ولايته الثانية ثم اتصلت بى وفاته وأنا بصعيد مصر سنة ٦١٧ هـ ولم أر فى العلماء بعلم الأثر المتفرغين لذلك أنقل منه للأثر .

ولم يذكر لنا عبد الواحد الأسباب التى حملته على هذا الارتحال وهو مستمتع بثقة الأمير حازم رضاه ، وأكبر الظن أنها أسباب سياسية قاهرة لم يكن له ولا لصاحبه حيلة فى معالجتها ، والتغلب عليها ، وانقطع عبد الواحد عن المغرب منذ ذلك التاريخ .

(١) المعجب صفحة ٢٤٥ .

(٢) « » ٣٠٩ .

وزار عبد الواحد مصر ، وقضى بها سنوات ، وتجول في أنحائها ، وجاس خلالها ، وزار مكة وبغداد وألف هذا الكتاب لسيد مجهول قد يكون من الوزراء العباسيين ، وهو يشير في المقدمة إلى أن هذا السيد قد توالى عليه نعمه ، وأنه أخذ بضجعه من حضيضى الفقر والخبول ، وقد سأله هذا السيد إملاء أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره وشيء من سير ملوكه وخصوصاً ملوك المصامدة بنى عبد المؤمن من لدن ابتداء دولتهم إلى سنة ٦٢١ هـ ، وأن يضيف إلى ذلك نبذاً عن لقيهم من الشعراء والعلماء وأنواع أهل الفضل ، ولم ير عبد الواحد بدأ من المسارعة إلى مافيه رضا هذا السيد المتفضل .

ولم يكن الرجل سعيداً بهذا التشريد الذى تدل ظواهر الأمور على أنه فرض عليه فرضاً وألزم به إلزاماً ، فهو يعتذر عما يكون قد وقع من تقصير فى كتابه بقوله بعد أن أشار إلى ضعف عبارته وغلبة العي على طابعه ، وعدم وجو كتب ومراجع ليستأنس بها فى كتابته « والوجه الثالث أن محفوظاتى فى هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت ، أوجبت ذلك هموم تزدحم على خاطر ، وهموم تستغرق الفكر » وفى عهد اضطراب الحكم تكثر الدسائس والمؤامرات وتسوء الظنون ، وكان عهد ولاية أبى يعقوب يوسف بن محمد الموحدى الذى ارتحل عبد الواحد إلى المشرق فى خلاله من عهود الاضطراب والقلق فقد بويغ وسنه يومئذ ست عشرة سنة ويقول عبد الواحد عن هذه البيعة « لا أدرى (١) أبعد أيه إليه أم لا لأنى أعلم أن أباه كان كثير الانحراف عنه فى آخر أيامه لما كان يسمح من سوء أخباره ، ويصفه عبد الواحد بالشهامة واليقظة وحدة النفس .

وقد كثر الطامعون فى الحكم وبدأت تشتد عوامل الاضطراب التى عصفت فيما بعد بدولة الموحدين .

وقد فرغ عبد الواحد من إملاء كتابه يوم السبت لست يقين من جمادى

الآخرة من سنة ٦٢١ وتقطع بعد ذلك أخبار عبد الواحد وتختفي شخصيته من التاريخ فلا يعرف عنه شيء ولا ندرى سنة وفاته ولا بأى أرض مات ، وقد عاش عبد الواحد فى مختلف أنحاء الدولة التى أرخ لها ، ولم يكن تحت ظل سلطانها حينما كتب كتابه ، أى أنه كان حراً يستطيع أن يكتب ما يشاء دون أن يستهدف لغضب أمير أو يسوء أحداً من أصحاب المناصب الكبيرة ، ولذا نلح أنه فى كتابه نزيه محايد ، وإذا كان فى بعض الأحيان يكيل المدح وينظم عقود الشناء فرد ذلك إلى إعجابه الصادق وتقديره الخالص ، وعلو صفات الممدوح وسابق علاقته الودية به وما أضفاه عليه من رعايته ، ويمكننا أن نثق بما قاله عن نفسه وأثبتته فى تأليفه وهو (١) « لم أثبت فى هذه الأوراق إلا ما حققته نقلاً عن كتاب أو سماعاً من ثقة عدل أو مشاهدة بنفسى ، هذا بعد أن تحررت الصدق ، وتوخيت الإنصاف فى ذلك كله ، وجهدت ألا أنقص أحداً ذرة بما له ولا أزيد خردلة بما لا يستحقه ، وبالله أستعين وإياه أسأل وإليه أضرع فى إلهام الصواب والسداد فى القول والعمل فهو حسبي ونعم الوكيل »

وقد أخرج العلامة دوزى الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى سنة ١٨٤٧ ثم طبع الكتاب بعد ذلك فى مصر طبعتين باسم تاريخ الأندلس ينقصهما التحقيق ، ثم طبعه دوزى طبعة ثانية وعن طبعة دوزى أخرجه شركة النشر المغربية بفاس سنة ١٩٣٨ ثم طبع بعد ذلك فى مصر سنة ١٩٥٠ بعد أن ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلى ، وقد فرغ المراكشى من إملاء كتابه كما ذكرت فى سنة ٦٢١ قبل انتهاء أجل دولة الموحدين ببضعة وأربعين عاماً فرأى الأستاذان تكميل هذا النقص فوصفا الأحداث التى جرت على دولة الموحدين منذ ذلك العهد إلى سقوطها سنة ٦٦٨ .

ويقول دوزى إننا يمكننا أن نثق بقول عبد الواحد إنه لم يذكر فى كتابه إلا ما شاهدته بنفسه وما سمعه من الثقات وإن مقدمة الكتاب صحيحة وجديرة

بالثقة بوجه عام ، وإنه قد استفاد من كتاب جذوة المقتبس للحميدى المتوفى سنة ١٨٨٤م وعبد الواحد نفسه يقرر ذلك قائلا (١) ، عليه عولت فى أكثر ذلك ومن كتابه نقلت ، خلا مواضع تبينت غلطه فيها أصلحتها جهد ما أقدر ،

تصحيحاته للحميدى قليلة ، ويقول دوزى إن كلام عبد الواحد عن ملوك الطوائف سطحي ولا يجب أن نعتمد عليه كل الاعتماد فهو مثلا يقول إن سقوط طليطلة كان سنة ٤٧٦م والواقع أنه كان سنة ٤٧٨م ويقول إن خيران حكم المرية بعد زهير والعكس هو الصواب فزهير جاء بعد خيران ، وفى تاريخ المرابطين جمل وفاة يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣م والحقيقة أنه مات سنة ٥٠٠م أما ما كتبه عن الموحدين فهو موضع الثقة وله قيمة كبيرة ، ومهما يكن من الأمر فإن كتاب المعجب كاف فى تخليد ذكرى هذا الرجل الممتاز الذى أرخ دولة ، وأحصى أخبار أمة وألسى بعد ذلك التاريخ ذكره ، وأهمل أمره ، فلم يجد من يسجل أخبار حياته أو يعرف حتى سنة وفاته .

ياقوت الحموى أو المؤرخ الجامع

فى مطالع القرن السابع الهجرى بدأت تظهر فى الشرق الأقصى قوة جديدة وهى الدولة المغولية التى أسسها هذا البناء السارع القدير ، والهدام المتلف المبير الذى عرفه التسارىخ باسم جنسكين خان ، وسرعان ما استرعت هذه الدولة الناشئة أنظار الدول المجاورة لها ، وأثارت اهتمامها وألذرتها بالخطر الذى يترقبها ، وتوقع البلاء الذى يهددها ، وكانت تفصل هذه الدولة المرهوبة الجانب عن أقرب الدول الإسلامية منها دولة الخطا ، ولكن الدولة الناشئة عمدت إلى إخضاع دولة الخطا وضممتها إلى رقعتها الآخذة فى الاتساع ، وبذلك أصبحت حدودها متاخمة لحدود الدولة الإسلامية التى كانت قريبة منها ، وهى الدولة الخوارزمية ، وكان لابد من تضادم هاتين القوتين ، فقد كانت الأسباب الداعية إلى ذلك متوافرة من الناحيتين ، وفى سنة ٦١٦ هجرية أخذت جموع المغول الحاشدة وجيوشهم الجرارة تسكتسح الدولة الخوارزمية المترامية الأطراف ، وعجزت جيوش علاء الدين شاه خوارزم عن دفع هذه الغارات الشعواء ، ورد هذا السيل العرم المغرق الجارف . وكان هجوم المغول على هذه الدولة الإسلامية التعسة المرزأة عنيفا غاية العنف ، قاسياً نهاية القسوة ، فاستباحوا أهلها ، وأوسعوهم تعذيباً وتقتيلاً ، ومثلوا بهم أفظع تمثيل وهدموا المدن العامرة ، وخربوا العواصم المزدهرة ، وأسرف المغول فى سوم الناس الهوان ، وإتيان المنكرات ، حتى قال عميد مؤرخى الإسلام فى هذه الفترة ابن الأثير عن هذا الهجوم المغولى إنه الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، مؤكداً أن التواريخ لم تتضمن ما يقارب هذه الكارثة أو ما يداها ، وقد أتم جنسكين خان إخضاع الدولة الخوارزمية فى مدى أربع سنوات ، فى سنة ٦٢٠ عاد أدراجه وعبر نهر سيحون متوجهاً إلى منغوليا .

وقبل أن تتجمع هذه العاصفة المدمرة بعامين كان يجلس فى أحد أسواق دمشق رجل قد شارف الأربعين من عمره ، وهى السن التى يبدأ الإنسان يشعر فيها

بائر الكهولة فيحلم بعد جهل ، ويعتدل بعد الإسراف على نفسه ، وتهدأ سورتة ، ويقل جماحه ، ويسكن صاحبنا هذا الجالس في السوق كان على فضله ، وغزارة علمه ، وسعة معرفته ، لا يخلو من بعض الحق والطيش ، وحدة الطبع وجفوة الخلق ، وكان قد أكثر من الاطلاع على كتب الخوارج ، وتأثر بآرائهم ، وجاراهم في تعصبهم على الإمام الرضى ، والمثل النادر في نبالة المنزع وسمو الأخلاق على ابن أبي طالب ، تجرت مناظرة بينه وبين أحد المعجبين بالوصى ، وحى وطيس الجدل بينهما ، ففقد صاحبنا توازنه ، واندفع يذكر الإمام الجليل بما لا يسوغ ولا يليق بمقامه الرفيع ومكانته في النفوس ، فأثار ذلك غضب الناس حتى هموا بقتله ، ووجد صعوبة كبيرة في النجاة بحياته والخروج من دمشق ، والهرب من الوالى الذى جد فى طلبه ليعاقبه على ما بدر منه .

وقد خرج من دمشق مستتراً متخفياً خائفاً مرعوباً حتى وصل إلى حلب ولم تطل إقامته بها ، وخرج منها إلى الموصل ، ثم انتقل إلى أربل ، وسار منها إلى خراسان .

كان اسم هذا الرجل ياقوت ، وكان يلقب بشهاب الدين ، وقد نشأ نشأة غير عادية . فهو روى الجنس ، وقد أسر من بلاده وهو صغير ، وحرم عطف والديه وعانى قسوة النخاسة ، وقد ابتاعه ببغداد رجل تاجر اسمه عسكر بن أبي نصر وكان هذا التاجر لا يحسن الخط ، ولا يعرف شيئاً سوى التجارة . وكان مقبلاً ببغداد ، وقد تزوج بها ورزق عدة من الأولاد ، وقد أراد هذا التاجر أن ينتفع بهذا الغلام الروى فى ضبط تجارتة ، وقيس حساباته ولمسك دفاتره ، ولما كبر ياقوت شدا شيئاً من النحو واللغة ، واستعان به مولاه فى أسفاره ، وشغله بها فى متاجره ، فكثر تردده إلى كيش وعمان وسائر فواحي الخليج الفارسى ، وكان يعود من هذه الانحاء إلى الشام ، ونرى من ذلك أن هذا الرجل بدأ يدرس الجغرافية منذ نشأته دراسة عملية كان لها تأثير بعيد فى حياته واتجاهات تفكيره ، ثم وقع خلاف بينه وبين مولاه ، وربما كان سببه ما فى طباعه من حدة ، وما خلفته

طفولته القاسية في نفسه من مرارة وألم وعقد نفسية ، وكان ياقوت حينذاك في بواكير الشباب أوريعان الفتوة ، فاشتغل بالنسخ بالأجرة ، وأفاد من مطالعة الكتب وأمعن في البحث والدرس والاستقصاء معتمداً على نفسه ، فلا نعرف له مدرسة انتسب إليها سوى مدرسة الحياة ، ولا نعرف له شيخاً تخرج عليه ، سوى نسخ الكتب وقراءتها والاشتغال ببيعها ، وعاد مولاه فأسبغ عليه عطفه وقربه منه وأعطاه شيئاً من المال وأرسله إلى كيش ، ولما عاد ياقوت من هذه الرحلة كان مولاه قد فارق الحياة . فأعطى أولاد مولاه وزوجته ما أرضاهم به ، واحتفظ لنفسه ببقية جعلها رأس مال له ، وسافر بها وهو يشتغل بالتجارة ، وقد جعل الكتب جانباً من تجارته ، وكان في أثناء ذلك مكباً على الاطلاع موالياً البحث مثابراً على التحصيل والدرس ، وتقلب على عينه الدنيا ، وطوحت به طوائف الزمن ، حتى رأيناه في سوق دمشق يناظر ويجادل ويهفو في حومة المناقشة تلك المهفوة التي كلفته الكثير وأرغمته على الارتحال إلى خراسان دون أن يعرج على بغداد لأن المناظر له بدمشق كان بغدادياً ، وخشى ياقوت أن يذاع عنه ببغداد ما صدر منه بدمشق فيحدث ما لآنحمد عقباه .

ولما انتهى إلى خراسان أخذ يتنقل في بلادها مستغلاً بالتجارة ، دائباً في مراجعة الكتب وجمع المعلومات وتحصيل الفوائد ، واستوطن مدينة مرو حيناً من الزمن ثم انتقل منها إلى مدينة نسا ، ومضى منها إلى خوارزم ، وكانت الأمور في أثناء ذلك قد تعقدت في أقاصي الشرق ، وساءت العلاقات بين الدولة الخوارزمية ودولة المغول ، وشرع المغول في هجومهم العنيف وعدوانهم الشديد . وصادف قدومه إلى خوارزم إقتراب الجيوش المغولية منها ، وتراجع الخوارزميين . فأنهزم ياقوت بنفسه . وقاسى في طريقه من المتاعب والأهوال ما يكل عنه الشرح ، ولا يبلغه الوصف ، ووصل بعد هذه الرحلة الشاقة المحفوفة بالأخطار إلى الموصل ، وقد تقطعت به الأسباب ، وأعوزه دنى الماء كل وخشن الشباب كما يقول عنه ابن خلكان ، وقد وصف لنا هذه الرحلة المضنية في رسالة أدبية ممتازة كان كتبها وهو في الموصل إلى أبي الحسن القفطى مؤلف كتاب « إنباء الرواة على أنباء النجاة » وغيره من

الكتب القيمة ، وهو يتحدث في هذه الرسالة عن إقامته بمرور الشاهجان ويقول « إنه وجد بها من كتب العلوم والآداب وصحائف أولى الأفهام والألباب ما شغله عن الأهل والوطن . وأذهله عن كل خل صني وسكن ، وإنه ظفر منها بضالته المنشودة ، وبقيّة نفسه المفقودة ، فأقبل عليها لإقبال النهم الحريص ، وقابلها بمقام لا يرمع عنها محيص ، فجعل يرتع في حدائقها ، ويستمتع بحسن خلقها وخلاتها ، ويسرح طرفه في طرفها ، ويتلذذ بمسوطها ونفها ، وذكر في هذه الرسالة أنه كان ينوى أن يقيم في خراسان بقية عمره لولا ما حدث بها من الخراب ، وأصاها من المحن والأرزاء ، ويصفها بقوله « كانت بلاداً مونة الأرجاء ، رائقة الانحاء ذات رياض أريضة ، وأهوية صحيحة مريضة ، قد تغت أطيارها ، وطاب روح نسيمها فصيح مزاج إقليميها ، ويسترسل في وصفها وصفاً شعرياً يقول في ختامه ، «وجملة أمرها أنها كانت أنموذج الجنة بلا مين ، فيها ما تشتهي النفس وتلد العين ، قد اشتملت عليها المسكارم ، وأرجحت في أرجائها الخيرات الفائضة للعالم » .

ثم يصف أهلها بكرم الأخلاق ونبل الطباع ويقول عنهم « أطفالهم رجال ، وشبابهم أبطال ، ومشايخهم أبدال ، شواهد مناقبهم باهرة ، ودلائل مجددهم ظاهرة » ، ثم يصف الكارثة التي حلت بهم من جراء اجتياح الجيوش المغولية لبلادهم بقوله « أصبحت تلك القصور كالمخو من السطور ، وأمست تلك الأوطان ، مأوى للأصداء والغربان ، يتجاوب في نواحيها اليوم ، ويتفاح في أرجائها الريح والسموم ، ويستوحش فيها الأنيس ، ويرثي لمصاها إبليس » .

ويصف أثر هذه الكارثة في نفسه فيقول « فإننا لله وإنا إليه راجعون ، من حادثة تقصم الظهر ، وتهلم العمر ، وتوهي الجلد ، وتضاعف الكمد ، وتشيب الولد ، وتخب لب الجليد ، وتسود القلب ، وتذهل اللب » .

ويصف تقهقره ناكساً على عقبه بقوله « تقهقر المملوك بقلب واجب ، ودمع ساكب ، ولب عازب ، وحلم غائب ، فتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل ، بعد مقاساة أخطار وابتلاء واصطبار ، وتمحيص الأوزار ، وإشراف غير مرة على

البوار والتبار ، لأنه مر بين سيوف مسالولة ، وعساكر مغلولة ، ونظام عقود محلولة ، ودماء مسكوبة مطلولة ، وجملة الأمر أنه لولا فسحة في الأجل ، لعز أن يقال سلم اليأس أو وصل .

وهو في ختام هذه الرسالة البليغة . يستنجد بالقفطى ، ويرجوه أن يفثه ظل رعايته ، يأخذ بضبعه في شدته ومحنته ، ويصرح بأنه « قد ضعفت قواه عن درك الآمال ، وعجز عن معاركة الزمان والنزال ، إذ ضمت البسيطة إخوانه ، وحجب الجديدان أقرانه ، ونزل المشيب بعذاره ، وضعفت قوى أوطاره » .

وقد أقام ياقوت في الموصل مدة مديدة ؛ ثم انتقل منها إلى سنجار ، وارتحل من سنجار إلى حلب ؛ وأقام بظاهرها .

ويروى لنا القفطى أن ياقوت لما وصل إلى حلب دخل عليه في حالة يشوق منظرها وقال له « إني قد ألتقيت عصاى بيباك ، وخيم أملى بجانب جنابك » ، ويذكر لنا القفطى أنه أكرم وفادته ، وضغط على نفسه ، وجشمها احتمال ما ذكره عن طيشه وأخلاقه الخلقة ، وانحرافات المذهبية ، وقد ترجم ياقوت للقفطى في معجمه وأثنى عليه ثناء مستطابا ، وقدره تقديراً جميلاً ، أما القفطى فقد كتب عنه في كتاب إنباه الرواة كتابه الزارى المستخف والمنعم الممتن ؛ ونال من علم ياقوت وأخلاقه ، ولست أدرى أكان ذلك منه تحريماً للحق وإيثاراً للصراحة وإنصافاً للتاريخ أم كان ذلك منه بدافع المنافسة الأدبية وما تجره من مجافاة الإنصاف وانتقاص الأقدار ، وقد سافر ياقوت من حلب إلى مصر في تجارته المعهودة ، ثم عاد إلى حلب وأقام بها حتى وافته منيته في سنة ٦٢٦ .

والعجيب في أمر هذا الرجل الذى عاش هذه العيشة القلقة المضطربة أن ترك طائفة من الكتب بينها كتابان يعدان من أنفس الكتب في المكتبة العربية ، وهما كتاب معجم الأدباء الذى سماه ياقوت « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » ، وكتاب « معجم البلدان » .

وقد جمع في كتاب معجم الأدباء ما وقع له من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والأخباريين والمؤرخين والوراقين والكتاب المعروفين وأصحاب الرسائل وكل من صنف في الأدب تصنيفاً ، أو ألف فيه تأليفاً ، وذكر في مقدمة الكتاب أنه أثر الاختصار وتوخى الإيجاز ، ولم يأل جهداً في إثبات الوفيات ، وتبيين المواليذ والأوقات ، وذكر تصانيف الذين ترجم لهم ، ومستحسن أخبارهم ، وبعض المختار من شعرهم والمستجاد من نثرهم ، ولم يذكر الأسانيد إلا فيما ندر ، لأنه قصد صغر الحجم ، وكبر النفع ، وقد أثبت مع ذلك مواضع أخذه ومواطن نقله ، وهو يحاول أن يسوغ عمله فيقول في المقدمة هذه أخبار قوم أخذ عنهم علم "قرآن المجيد والحديث المفيد ، وبصناعتهم تنال الإمارة ، وببضاعتهم يستقيم أمر السلطان والوزارة ، وبعلمهم يتم الإسلام ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام ، وهو في الجملة مرجع من المراجع الهامة لدارسي الأدب والتاريخ .

وقد أفادته أسفاره ورحلاته في إيران وبلاد العرب وآسيا الصغرى ومصر والشام وبلاد ما وراء النهر وخراسان ، ومكنته من جمع المواد اللازمة لكتابته الآخر القيم النادر وهو كتاب معجم البلدان ، وقد ذكر لنا في المقدمة التي قدم بها لهذا الكتاب النفيس الباعث على تأليفه ، وهو اختلاف الناس في ضبط أسماء البلدان والأمكنة والبقاع ، وأتى في روعة افتقار العالم إلى كتاب في هذا الشأن يرجع إليه ويعتمد عليه ، وقد آنس من نفسه القدرة على الاضطلاع بهذه المهمة الشاقة . والظاهر أنه بدأ التأهب للقيام بهذا العمل سنة ٦١٥ هـ وهو بمرور الشاهيجان ، وذكر في المقدمة أنه اعتمد في تأليف كتابه وجمع مواده على ما دونه كبار الجغرافيين من المسلمين أمثال ابن خرداذبة والبلخي والإصطخري وابن حوقل والبكري ودواوين العرب والمحدثين ، وتواريخ أهل الأدب وما تلقاه من أفواه الرواة وتفاريق الكتيب ، وما شاهده بنفسه في أسفاره وتطوافه ، ورتبه على

حروف المعجم . ولقد روى ياقوت في معجمه بعض الخرافات الذائعة في عصره .

وقد اعتذر عن ذلك في مقدمة معجمه فقال : لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباه العقول لبعدها عن العادات المألوفة ، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة ، وأنا مرتاب بها متبرئ إلى قارئها من صحتها ، لأنى كتبها حرصاً على إحراز الفوائد ، فإن كانت حقاً فقد أخذنا فيها بنصيب المصيب ، وإن كانت باطلاً فلها في الحق شرك ونصيب ، فأنا صادق في إيرادها كما أوردتها ، فهو قد أورد ما سمع كما وعاه ، وهو رواية أحاديث والعهد فيها على من روى عنهم تلك الأحاديث ، والكذاب هو الذى يضع الأحاديث ويخترعها اختراعاً ، وقد استغرق تأليف هذا المعجم سنوات . واقتضاه جهداً ناصباً . وكان يود مضاعفة حجمه وزيادة فوائده . ولكنه كان قد تطاولت به السن . وأحس أن الاستيعاب شئ لا يفي به طول العمر . فاكتمى بما جمعه ، والعين طامحة والهمة إلى طلب الازدياد جاجة ، وهو ينهى من اطلع على كتابه عن اختصاره لأن المختصر لكتاب في رأيه كمن أقدم على خلق سوى فقطع أطرافه ، فتركه أشل اليدين ، أتر الرجلين ، أعشى العينين ، أصلم الأذنين ، وقد أهدى كتابه إلى خزانة القفطى لانه كما يقول : رد عنه صرف الدهر والمحن ، وأصبح من كسفه في حرز حرز .

وقد روى له صاحب الوفيات بعض أبيات من الشعر ، ولكن شعره على قلته لم يكن من الشعر الجيد المطبوع . وهو نفسه لم يدع التقدم في الشعر . وقد صدر بعض أبيات له بقوله (١) : مع اعتراضى بقلة بضاعتى في الشعر وعلى بركاكة نظمى والنثر ، وربما كان من جيد نظمته قوله في الشكوى :

تسكرونى منذ شئت دهرى فأصبحت معارفه عندى من النكرات
إذا ذكرتها النفس حنت صباية وجادت شئون العين بالعبرات

إلى أن أتى دهر يحسن ما مضى ويوسعني من ذكره حشرات
فكيف ولما يبق من كأس مشربي سوى جرع في قعره كدرات
وكل إناء صفوه في ابتدائه ويرسب في عقباه كل قذاة
وياقوت جامع بارع ، يقظ الناقد ، واسع الاطلاع ، كثير التحصيل ،
ولكنه ليس من أصحاب النظرات الكاشفة والأفكار العميقة ، والخواطر
الملهمة . وهو في طليعة جامعي المعارف والمعلومات ، ومنسقي الأخبار والروايات
ونازمي أشتات الفرائد والفوائد ، ومن أقدرهم على ترتيبها وتنظيمها ، وتيسير
الاستفادة منها . وسيظل اسمه مذكوراً مشكوراً ما بقي الأدب العربي .

أبو الحسن النباهي أو المؤرخ الفقيه

الكتب الخاصة بتراجم الكتاب والشعراء والأدباء وطبقاتهم وسير رجال الحكم والسياسة وأبطال الميادين والوقائع والفتوح كثيرة موفورة في الأدب العربي ولكن الكتب الموقوفة على حياة حماة العدالة وسدنة القانون والشرعة قليلة نادرة ، ومن هذه الكتب كتاب « تاريخ قضاة الأندلس » لأبي الحسن النباهي المالقي الأندلسي ، وقد سماه كتاب « المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » والظاهر أن الكتب مثل الناس ، منها ما يوانيه الحظ ، ويصادفه التوفيق ، فيظفر بالمسكنة المرموقة ، ويحظى بالشهرة البعيدة ، ومنها ما يتخلى عند الحظ ويخطئه التوفيق ، فيظل مهملا في زوايا الخول مطرحا في مدارج النسيان ، وقد تشتهر بعض الكتب وتنعم بالرواج والذيع لامتياز ظاهرة ، أو أصالة غير منسكورة ، أو طرافة في موضوعها بادية ملحوظة ، وإنما لأنها تستجيب لحالة نفسية أو عقلية طارئة .

وكتاب النباهي عن قضاة الأندلس والمغرب من الكتب القيمة التي ظلها الحظ وجار عليها ، فقد ظل حينما طويلا من الزمن محمول الشأن ، غامض القدر ، لا يعرفه أحد ، ولا يسمع به حتى المنقرون عن الكتب ، والباحثون عن الأصول والخطوط ، وبقي هذا حاله ومصيره حتى قدر له من المستشرق المعروف ليفي بروثسسال من يقل عثرته ، وينهضه من كبوته ، ويبدد عنه أغشية الخفاء ، ويجلو حجب الظلام ، ويشرف على طبعه وبعثه إلى الحياة ، وهو يقول في تصديره « أنشر في هذا السفر أثرأ لم يطبع إلى اليوم » وهو وثيقة عظيمة الخطر عن تاريخ القضاة بالمغرب الإسلامي في العصر الوسيط ، فتاريخ تصنيفه المتأخر مكن مؤلفه من الإحاطة بمدة طويلة من الزمن تمتد من الفتح العربي إلى القرن الثامن الهجري ، غير أن هذا الكتاب رغم اتساع الموضوع الذي تناوله بقي محمولا إلى يومنا

هذا ، ولا يوجد عنوانه حسب ما أعلم في أحد المؤلفات التي أحصت المكتب المتعلّقة بالأدب العربي ، فلم يذكره حاجي خليفة ولا بروكلمان ، وعبثاً يبحث المرء عن أثر له في مكاتب أوروبا والشرق التي نشرت فهرسها ، وسبب ذلك ولا شك أن الناس لم يثقوا قديماً منه نسخاً ، وقد جلب عدد قليل منها في آخر القرون الوسطى من مملكة غرناطة الصغيرة إلى مدن المغرب الأقصى ، وهناك ساعدني الحظ فاكشفت منه نسختين خطيتين لهما من الصحة ما كفي لإغرائني بالعمل على نشر الكتاب ،

فهذا الكتاب إذا كان مغموراً مجهولاً الجهل كله كما يقول ناشره الأستاذ بروقنسال ، ولكن الغريب مع ذلك أن مؤلفه القاضي النباهي كان رجلاً معروفاً مذكوراً بارز الشخصية بين معاصريه ، موصوفاً بسعة العلم ، وثقوب الفهم ، ونباهة المحتد ، فهو من أسرة استقرت منذ أجيال عديدة بمدينة من أزهر مدن الأندلس الساحلية ، وهي مدينة مالقة ، وقد ولد بها سنة ٧١٣ هجرية ، وعمر طويلاً ، ففي سنة ٧٩٢ كما روى لنا المقرئ في أزهار الرياض كان لا يزال حياً يرزق ، وهو يقول عنه القاضي^(١) والنباهي هو قاضي الجماعة بقرناطة الإمام العالم العلامة ، كان رحمه الله من كبار المشهورين بها ممن له الفصاحة والبلاغة والجلالة إلى الاتصاف بالعلم والمعرفة والتفنن في العلوم معقولها ومنقولها ،

وقد نشأ النباهي بمالقة ودرس بها على شيوخ مقصودين ، ثم رحل عنها إلى غرناطة لاستكمال ثقافته الفقهية ، ثم غادرها لما ولي القضاء بمدينتين صغيرتين وعاد للاستقرار بها نهائياً عندما عين كاتباً بالديوان في بلاط ملك غرناطة ، ولم يمض إلا قليل حتى قلده سلطان غرناطة قضاء الجماعة بها ، وهي وظيفة تعادل قاضي القضاة في البلاد الإسلامية الأخرى .

وقد عاصر النباهي المؤرخ المغربي الكبير العلامة ابن خلدون ، واتصل به ، وسمع منه ، ونقل عنه . وتأكدت العلاقة وتوثقت الرابطة بينه وبين معاصره الوزير الشاعر الكبير لسان الدين بن الخطيب ، وتبادلا الرسائل ، وتعارضا

(١) أزهار الرياض جزء ٢ صفحة ٥ .

الممدح والثناء ، حتى غام بينهما الأفق وأظلم الجو ، ووقعت النبوة ، وعمل كل منهما على تشويه سمعة الآخر وهدم مكانته ، وإزالته من طريقه .

وقد اتهم ابن الخطيب في عقيدته ، ورمى بالزندقة ، وقد انتهت الدسائس التي حيكت حوله بسقوطه ونكبته وقتله سنة ٧٧٦ ، والمعروف أن القاضي النباهي كان ضالعا في اتهام ابن الخطيب شديد النقد لسلوكه ومواقفه ، ولست واثقا من أننا نملك من البيانات والمعلومات والوثائق ما يساعدنا على الفصل في قضية الخلاف الشديد الذي ثار بين القاضي النباهي والوزير لسان الدين وانتهى بهذه النهاية الفاجعة ، وقد كان المقرئ من أشد الناس إعجابا بلسان الدين ، وأعظمهم تقديرا لأدبه وعلوه وربما يكون هذا الإعجاب الشديد هو الذي حمله على أن يقف من هذا الخلاف في صف صاحبه ابن الخطيب ، كما تم لهجته حينما يعرض في النواحي المختلفة من كتاب « نفح الطيب » لهذا الخلاف ، فهو مثلا يقول حينما يتحدث عن نشأة ابن الخطيب (١) : « ومن أعدائه الذين باينوه ، بعد أن كانوا يسعون في مرضاته سعى العبيد القاضي أبو الحسن بن الحسن النباهي فحكم قبل يده ، ثم جاهره بعد انتقال الحال وجد في أمره مع ابن زمرك حتى قتل لسان الدين ، وانقضت دولته فسبحان من لا يتحول ملكه ولا يلبده . ولست أدري هل كان القاضي النباهي من هؤلاء الدهاة الأشرار الذين يحكون السكيد ويحيدون الدس حتى يجهزوا على فريستهم ، أو أنه وجد عن صدق اعتقاد وصحة اقتناع في أقوال لسان الدين وكتابات ما يستوجب الاتهام ويسوغ الرمي بالكفر والإلحاد ، ولمس في سلوكه وتصرفاته ما يشير الريبة ، ويدعو إلى ترك المسالمة والمهادنة والإيمان في الخصومة والمجاربة ، ومهما يكن من الأمر فإن لسان الدين نفسه قد أثنى على النباهي في كتاب الإحاطة وغالى بقيعته فقال في ترجمة السلطان بن الأحمر (٢) : « ثم قدم للقضاء الفقيه الحسيب أبا الحسن ، وهو عين الأعيان بمألقة ، الخصوص برسم

(١) نفح الطيب ، الجزء ٧ صفحة ٤٦ .

(٢) نفح الطيب ، الجزء ٧ صفحة ٤٩ .

التجلة والقيام بالعقد والحل ، فسدد وقارب وحمل الكل ، وأحسن مصاحبة الخطبة والخطبة ، وأكرم المشيخة مع النزاهة ، ولم يقف من حسن التأتى على غاية فانفق على راحة عقله ولم يقف فى النصيح عند غاية ، ومن وصفه له حينما ولى القضاء قوله (١) ، طاهر النشأة وقورها محمود السجية مشكورها ، حالاً من النزاهة بالمكانة الآمنة . ساحباً أذبال الصون . بعيداً عن الانصاف بالفساد من لدن الكون ، ولما تغير ما بينهما حمل عليه لسان الدين حملات شعواء وأوسعه هجواً وسخرية وعيره بقصر قامته ، ولقبه بالجلسوس ومعناها القصير ، ولم يكتف بذلك بل ألف رسالة خاصة فى هجائه سماها « خلع الرسن فى وصف القاضى أبى الحسن » ولعلها من قبيل هذه المهاترات التى تدل على عقلية كتابها ونفسيته قبل أن تنال من مكانة الذين يقال فيهم وتساق إليهم .

ويقول المقرئ عن لسان الدين (٢) ، وأعلم أن لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى الغاية فى المدح والقدح ، فتارة على طريق الترسى ، وطوراً على غيرها ، وقد أقذع وبألف رحمه الله تعالى فى هجوا أعدائه بما لا تحتمله الجبال ، وهو أشد من وقع النبأ . .

ومن أقوال النباهى فى مقدمة كتابه « هذا كتاب أرسى فيه بحول الله نبذاً من الكلام فى خطة القضاء ، وسير بعض من سلف من القضاة ، أو بلغ رتبة الاجتهاد وفيمن يجوز له التقليد ومن لا يجوز ، وصفات المفتى الذى ينبغى قبول قوله والاقتداء به ، لمن ذهب إلى مقلده ، وبالجارى بالفتاوى على منهج السداد ، وهل يجوز للمفتى قبول الهدية من المستفتى أم هى فى حق من ضروب الرشاء المحرمة على الجميع . ولست أجهل أن هذا الغرض قد سبق له غيرى ، وصنف فى معناه أناس قبل ، لكنى رأيت أن أعيد الآن ما أعيدته على جهة التذكير لنفسى ، والتنبية لمن هو مثلى ، وحاصل ما أريد إثباته من ذلك فى هذا الكتاب يرجع إلى أربعة

(١) نفع الطيب الجزء ٧ صفحة ٦٠ .

(٢) نفع الطيب - جزء ٧ صفحة ٦٦

أبواب ، هذا ما يقوله المؤلف في المقدمة ، والظاهر أنه لم يكتب إلا جزءاً واحداً من كتابه ، فهو يشير في المقدمة إلى أن الكتاب سيضم أربعاً أبواب ، ولا نجد منها سوى بابين متفاوتين في الطول غاية التفاوت ، فالباب الأول يبحث في القضاء عامة ، وفي المسائل التي تتعلق به ، وهو لا يستغرق سوى صفحات قليلة من الكتاب ، والباب الثاني مجموعة تراجم قضاة أكثرهم من الأندلس ، وبعضهم من أهل المغرب ، وهذا الجزء له أهمية بالغة ، فهو يزودنا بحقائق تاريخية قيمة ، ويمدنا بمعلومات نفيسة عن الكثيرين من رجال الأندلس والمغرب ، ولعل الأهم من ذلك كله هو أنه يكشف لنا صفحة باهرة من تقدير الأندلسيين خاصة والمسلمين عامة لمساكنة القانون وقداسة القضاء ، ومؤلف الكتاب نفسه يقول في الباب الأول من كتابه : « خطة القضاء في نفسها عند السكافة من أسنى الخطط ، فإن الله تعالى قد رفع درجة الحكم ، وجعل لإلهم تصريف أمور الأنام ، يحكون في الدماء والأبضاع والأموال والحلال والحرام ، وتلك خطة الأنبياء ومن بعدهم من الخلفاء ، فلا شرف في الدنيا بعد الخلافة أشرف من القضاء ، ولا أجل منيف قدره في الأقدار ، ولسمو خطره في الأخطار ، اشترط العلماء في متوليه من شروط الصحة والكمال ما تقرر في كتبهم واستبعد حصول مجموعة الأئمة المقتدى بهم ، فقد نقل عن مالك بن أنس أنه كان يقول في الخصال التي لا يصلح القضاء إلا بها : « لا أراها تجتمع اليوم في أحد ، فإذا اجتمع منها في الرجل خصلتان العلم والورع قدم ، ويرى المؤلف أن من قلد الحكم بين الخلق والنظر في شيء من أمورهم فهو أحوج الناس إلى نور العقل وإلى اتصافه بالتذكير والتهذيب والتفطن ، ومن لم تكن فيه هذه الصفات ليس له أن يلي القضاء ، فلا ينبغي أن يستقضى إلا ذكي فطن فهم متأن غير عجول ، ولذا قال عمر بن عبد العزيز : « لا يصلح للقضاء إلا القوى على أمر الناس ، المستخف بسخطهم وملامتهم في حق الله ، العالم بأنه مهما اقرب من سخط الناس وملامتهم في الحق والعدل والقصد استفاد بذلك ثمناً ربيعاً من رضوان الله » .

وواضح من ذلك تقدير رجال الأمانة الإسلامية للقضاء وعلو شأنه في نفوسهم ، وقد لاحظت أنشاء اطلاعى على تراجم مشاهير القضاة في كتاب النباهى أن الكثيرين من العلماء والفقهاء كانوا يتجنبون الاضطلاع بمهمة القضاء ما وسعهم الجهد . ويفرون من احتمال تبعثها الثقيلة فراراً ، وذلك لتقديرهم جلاله خطرهما وحاجتهما إلى الكثير من الصفات العالية والعلم الجهم ، والدراية الواسعة ، وكانوا لتواضعهم وحرط محاسبتهم لأنفسهم ولمكبرهم شأن القضاء يرون أنهم غير أهل للقيام بأعباء هذا المنصب العالى ، وتقلد تلك الخطة الشريفة .

وكان الاعتقاد السائد أنه لا ينبغي أن يتقدم للقضاء إلا من وثق بنفسه أو تعين له وأجبره الإمام العدل عليه ، وللإمام العدل إيجاب من يصلح للقضاء على قبوله ، وله أن يمتنع عنه إلا إذا تحقق أنه لا يصلح في تلك الناحية للقضاء سواء ، فلا يحل له الامتناع ، ويفرض عليه في هذه الحالة قبول القضاء فرضاً ، ومن أقوال عمر بن الحسين « ما أدركت قاضياً استقضى بالمدينة إلا رأيت كآبة القضاء وكراهيته في وجهه ، ويروى في الصحيح عن أنى ذر « قلت يا رسول الله ألا استعملنى ! ، فضرب بيده على منكبيه ثم قال « يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها » .

فخطورة القضاء كانت تجعل الكثيرين من الفضلاء الاتقياء ذوى الضمائر الحية ينفرون من بلائه ، وينزفون عنه ، وقد سجن بعض الأئمة بسبب امتناعهم عن قبول القضاء ، منهم الإمام أبو حنيفة ، فقد دعاه ابن هبيرة للقضاء فأبى ، فحبسه وضربه أياماً كل يوم عشرة أسواط وهو متماد على تأييه حتى تركه ، ونقل عن عثمان بن عفان بأنه قال لعبد الله بن عمر بن الخطاب « إقض بين الناس ، فقال « لا أقضى بين رجلين ما بقيت » ، فقال له عثمان « لنفعلن » ، فقال « لا أفعل » ، قال « فإن أباك كان يقضى » ، فقال « كان أبى أعلم منى وأتقى » .

ومن عرض عليه القضاء من فقهاء الأندلس فأبى من قبوله « إبراهيم بن محمد

بن بار ، فقد دعاه إليه الأمير محمد بن عبد الرحمن لقصة رفعت من قدره عنده فأباه ، فأرسل إليه بذلك أحد رجاله المقر بين منه فامتنع عليه ولم يجد فيه حيلة ، فأعاد إليه رسوله يقول : إذا لم تقبل قضاءنا فاحضر مجلسنا وكن أحد الداخلين علينا الذين نشاورهم في أمورنا ونسمع منهم في رعيئنا ، فلما استمع إلى رسالته قال له : إن ألح على الأمير في هذا ومثله هربت والله بنفسى من بلده فما له ولى ! ، فأعرض الأمير عنه عند ذلك .

وقد كان أمير الأندلس عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل من أشد أمراء الأندلس هيبه وأعظمهم صولة ، فلما استشار أصحابه في قاض يوليه على قرطبة ذكر له ولده هشام المصعب بن عمران ، فأمر بالإرسال إليه ، فلما قدم المصعب أدخله على نفسه بحضرة ولده هشام وخاصة أصحابه ، وعرض عليه القضاء ، فأبى من قبوله ، وذكر أعذاراً تعوقه عنه ، فردّه الأمير وحله على العزيمة ؛ وأصر مصعب على الإجابة البتة ، فغضب الأمير وأطال الإطراق ، ولكنه استطاع أن يحكم جماع غضبه ونقمته وقال للمصعب : إذهب عليك العفاء وعلى الذين أشاروا بك .

ومن عرض عليه القضاء فأباه محمد بن عبد السلام الحشنى ، فقد نفر منه نفوراً شديداً ، فحاول الأمير الأندلسى محمد بن عبد الرحمن أن يرغمه على قبوله بالتهديد والوعيد فكتب إليه : إن من عاصانا فقد أحل بنفسه ودمه ، فلما قرئت له هذه الرسالة نزع قلنسوته عن رأسه ومد عنقه وجعل يقول : أبيت كما أبث السموات والأرض إجابة لإشفاق لا إجابة لنفاق .

ولا نزاع فى أن هذا الزهد فى تولى القضاء من أصدق الأدلة على يقظة الضمير والتشدد فى محاسبة النفس عند أمثال هؤلاء العلماء الأماثل ، ولكنه قد يكون من بعض الوجوه نوعاً من الفضائل السلبية ، وربما كان أدخل فى الزهد وأدل على الإحساس بالعدالة وتقديرها وأقرب إلى الفضائل الإيجابية قبول الاضطلاع بهمة القضاء ثم مواجهة القاضى للامراء الأقوياء والحكام ذوى السطوة والنفوذ والمسكاة العالية والجاه العريض ، وإشعارهم بقوة القانون وإخضاعهم لسلطان

العدالة ، ومن أمثال ذلك موقف القاضى نصر بن ظريف اليحصى من الأمير عبد الرحمن الأول فى قضية حبيب القرشى ، وذلك أن حبيباً هذا دخل على الأمير عبد الرحمن فشكا إليه القاضى ، وذكر له أنه يريد أن يسجل عليه فى ضيعة قيم فيها وأدعى عليه الاغتصاب لها ، ولاذ بالأمير من إسراع القاضى إلى الحكم عليه من غير تثبت ، فأرسل الأمير إليه . وكلمه فى حبيب ونهاه عن العجلة عليه ، فخرج ابن ظريف من يومه وعمل بضد ما أراد الأمير ، وأنفذ الحكم ، وبلغ الخبر حبيباً فدخل إلى الأمير مغيضاً متغيراً ، فذكر له ما عمله القاضى ، ووصفه بالاستخفاف بأمره والتمعض له وأغراه به ، فغضب الأمير على القاضى واستحضره فقال له : من أمرك على أن تنفذ حكماً وقد أمرتك بتأخيره والإناءة فيه ، فقال له القاضى : قد منى عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فإنما بعثه الله بالحق ليقتضيه به على القريب والبعيد ، والشريف والدنى . وأنت أيها الأمير ما الذى حملك على أن تتحمل لبعض رعييتك على بعض ، وأنت تجد مندوحة بأن ترضى من مالك من تعنى به وتمد الحق لأجله ؟ ، فقال له الأمير : جزاك الله يا ابن ظريف خيراً ! ، ويقول النباهى عن هذا القاضى : كان من زهده وورعه إذا شغل عن القضاء يوماً واحداً لا يأخذ لذلك أجراً .

ومن هذه المواقف الرائعة موقف القاضى محمد بن بشير مع الأمير الحكم حين رفض شهادة الحكم ، فذهب إلى الحكم أحد رجاله وقال له : ذهب سلطاننا وأزيل بهاؤنا ، أيجترى هذا القاضى على رد شهادتك والله تعالى قد استخلفك على خلقه ، وجعل الأمر فى دماهم وأموالهم إليك ؟ هذا ما لا ينبغي أن تحتمله ، وجعل يغربه بالقاضى ويحرضه على الإيقاع به ، ولكن الأمير كان رجلاً عاقلاً حازماً مقدراً لتبعاته فأجاب : القاضى رجل صالح لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وقد فعل الذى يجب عليه . ولست أعارض القاضى فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين فى قبض يد مثله . ولما عوتب القاضى قال لمن عاتبه : يا عاجز ! ألا تعلم أنه لا بد من الإعذار فى الشهادات ؟ فمن كان يجترى على الدفع فى شهادة الأمير لو قبلتها ؟ وإن لم أعذر بخست الشهود عليه بعض حقها .

والشيء الجميل هو أن هؤلاء الأمراء الكبار الأعلام أنفسهم كانوا يؤمنون بالعدالة ، فكان الأمير الحكم يقول : إنا معشر بني مروان لا تأخذنا في الله لومة لائم ، وما نرى الله رفع ملكنا ، وجمع بهذه الجزيرة فلنا ، وأعلى فيها ذكرنا إلا بإقامة حدوده ، وإعزاز دينه ، مع مجانبة الأهواء المضلة .

والواقع أن احترام العدالة وإكبار شأن الشريعة والقانون والتزام الحدود هي مساك الدول ، وأساس الحضارة الحقة ، وأعز مطالب الإنسانية ، وفي كتاب تاريخ القضاة للنباهي الكثير من أمثال هذه الأخبار الحسان ، والمواقف المشرفة مع تحرى الدقة في الرواية ، وتحقيق الخبر .

المقرئ أو المؤرخ الذواق

المراجع المعروفة في تاريخ الأندلس وأدبها وسائر ألوان حضارتها وجوانب ثقافتها قليلة نادرة ، ولا خلاف فيما أرجح أن من أقوى أسباب ذلك فقدان الكثير من الكتب الأندلسية القديمة والمؤلفات النفيسة خلال النكبات المترددة التي أصابت المسلمين حين إجلالهم عن تلك البلاد ، وقد جهد المتعصبون من الأسبانيين في التعفية على آثار الإسلام في بلادهم وإزالة معالم حضارته ، وكان تحريق الكتب أو إغراقها في الأنهر في مقدمة تلك الأعمال المؤذية المخربة الضارة بالعالم وحياة الفكر ، ومن دواعي الأسف أن الطغاة المستبدين والحق المتعصبين كثيراً ما يتورطون في هذه الخطئة ويحترحون هذا الإثم حتى في أوقات الاستنارة وفي ظلال الحضارة .

ومن أوفى تلك المراجع المعروفة في تاريخ الأندلس ومختلف أخبارها وأحوالها - إن لم يكن أوفاهها قاطبة - كتاب العلامة المغربي العباس أحمد بن محمد المقرئ ، فهو أحفلها بتاريخ الأندلس ، وأجمعها لأحوالها الأدبية والسياسية والاقتصادية ، وأخبار رجالها الأعلام ، وشعرائها الفحول ، وكتابها المبرزين ، وأشعارهم الرائقة الرائعة ، ورسائلهم البليغة الممتعة ، ونواذرهم الطريفة ، وأجوبتهم المسكتة ، وسائر براعاتهم وعبقرياتهم .

ولم يكن هذا الرجل الفاضل المقتون بالأندلس وأخبارها ، والمعجب بحضارتها ورجالاتها ، أندلسي الأصل والنشأة ، ولم ير الأندلس رأى العين ، فقد كان المسلمون في عصره قد غلبوا على أمرهم في الأندلس ، وأخرجوا منها ، وطردت البقية الباقية منهم أو ذابت وفيتت في الكثرة الأندلسية الغالبة ، وتقلص ظلمهم عنها تقلصاً تاماً ، ولكن المقرئ ظل مع ذلك شديد التعلق بأخبار الأندلس ، دائم الاطلاع على تاريخها وأدبها وعلموها ، مشابراً على استقصاء تلك الأخبار ، وجمع شتى

المعلومات ، وطلبها في مظانها الأصلية ، ومراجعتها الأئمة الموثوق بها .

وقد ولد المقرئ في تلمسان ببلاد الجزائر ونشأ بها ، وحفظ القرآن ، وقرأ وحصل بها على عمه أبي عثمان سعيد بن أحمد المقرئ مفتي تلمسان ، وكان عالماً فاضلاً وفقيهاً متمكناً ، وكان المقرئ يقول عن بلدة تلمسان إنها بلدة عظيمة من أحسن بلاد المغرب ، وإنها في يد العثمانيين ، وهي الحد المضروب بين سلطانهم وسلطان المغرب .

والمقرئ نسبة إلى قرية من قرى تلمسان ، وإليها نسبة آبائه ، ويقول الأستاذ ليثي بروفسال في دائرة المعارف الإسلامية إن المقرئ قد ولد سنة ١٠٠٠ هجرية ، ولم يذكر بالذات المرجع الذي اعتمد عليه في ذلك ، وقد خلت المراجع التي تصفحتها واستشرتها من ذكر سنة ميلاده ، ومهما يكن من الأمر فيأتي أشك في صحة هذا التاريخ ، وأرجح أن المقرئ قد ولد قبل ذلك بعشر سنوات على أقل تقدير ، والمقرئ نفسه يقول في نفع الطيب عند ذكر تلمسان : « وهي مدينتنا علقنا بها القاتم ، وبها ولدت أنا وأبي وجدى وجد جدى ، وقرأت بها ونشأت إلى أن رحلت عنها في زمن الشيبية إلى مدينة فاس سنة تسع وألف ، ثم رجعت إليها عام عشرة وألف ، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف إلى أن ارتحلت عنها إلى المشرق في أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف ، وواضح من هذا النص أنه رحل عن تلمسان في زمن الشيبية ، فإذا كان قد ولد سنة ١٠٠٠ فإن عمره حين رحيله عن تلمسان لم يكن يتجاوز التاسعة ، وأظن أن الإنسان لا يقول عن نفسه وهو في التاسعة : إنه في زمن الشيبية » وقد توفي المقرئ سنة ١٠٤١ هجرية ، وكان بلا أدنى خلاف رجلاً ممتازاً ناشطاً الهمة ، ناهض العزم ، جيد التحصيل ، متوفراً على الدرس ، ولسكى إنتاجه الغزير وتوالياه الجملة ليست عمل رجل لم يعيش في الدنيا سوى واحد وأربعين عاماً ، وبخاصة إذا علمنا أن الرجل لم يكن منقطعاً للتأليف ، وكان له من أعمال وظيفته وأسفاره ورحلاته ما يستنزف وقته ويستأثر بجانب من جهده .

ولما عاود المقرئ الرجوع إلى فاس استقر بها ، ثم ولى الإمامة والخطابة ؛

وفي أواخر سنة ١٠٢٧ اعتزم الارتحال إلى المشرق تاركاً المنصب والأهل والوطن ، قاصداً حج البيت الحرام ، والظاهر أن الظروف السياسية المضطربة هي التي استوجبت هذا الرحيل فقد ساءت الأحوال في المغرب بعد وفاة ملكه أحمد المنصور لوقوع الخلاف بين أولاده ، وقد أنشد صاحب مراكش متمثلاً قول الحضرمي (١) .

بحبتي تقتضى مقامى وحالى تقتضى الرحيل
هذان خصمان لست أقضى بينهما خوف أن أميلا
فلا يزالان في خصام حتى أرى رأيك الجميلا
فأجابه صاحب مراكش :

لا أوحش الله منك قوماً تعودوا صنعك الجميلا

وركب البحر إلى مصر، وكانت الرحلة شاقة خفيفة عانت فيها السفينة أهوال البحر وشدائده، وقد وصف لنا هذه الرحلة البحرية في عبارات قوية يقول منها ولما ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السحر والنجر . شاهدنا من أهواله وتنافى أحواله ما لا يعبر عنه ، ولا يبلغ له كنهه ، استقبلتنا أمواجه بوجوه بواسر ، وطارت إلينا من شراعه كواسر ، قد أزعجتنا أكف الريح من وكرها لما نبهت اللجج من سكرها ، فلم تبق شيئاً من قوتها ومكرها ، فسمعنا للجمال صفيراً ، وللرياح دويًا عظيمًا وزفيراً ، وتيقنا أننا لا نجد من ذلك إلا فضل الله بحيراً وخفيراً ، وأيسنا من الحياة لصوت العواصف والمياه ، فلا حيا الله ذلك الهو المزعج ولا بياه ، والموج يصفق لسمع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعد ويقرب ، وفرقه تلتطم وتصطفق ، وتختلف ولا تكاد تتفق ، فتخال الجو يأخذ بنواحيها وتجذبها أيديه من قواصمها حتى كاد سطح الأرض يكشف من خلالها وعنان السحاب يخطف في استغلاها ، وقد أشرفت النفوس على التلف

من خوفها واعتلاها ، وآذنت الأحوال بعد انتظامها باختلاها ، وسامت الظنون ، وترامت في صورها المنون والشرع في قراع مع جيوش الأمواج ، أمدت منه الأفواج بالأفواج ، ونحن قعود كدود على عود ، ما بين فرادى وأزواج ، قد نبت بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق ألسنتنا ، وتوهمنا أنه ليس في الوجود ، أغوار ولا نجود ، إلا السماء والماء وذلك السفين ، ومن في جوف قبره دفين ، مع ترقب هجوم العدو في الرواح والغدو ، فزادنا ذلك الحذر الذي لم يبق ولم يذر على ما وصفناه من هول البحر قلقاً ... وتشقت أفكارنا فرقاً ، وذبنا أسي وندماً وفرقاً إلى أن قضى الله بالنجاة ، وكل ما أراحه فهو السكائن ... فرأينا البر وكأنا لم نره وحصل بعد الشدة الفرج ، وزار القاهرة بعد نجاته من أخطار هذه الرحلة المزعجة ، وتابع رحلته إلى الحجاز في أواخر سنة ١٠٣٨ وطاف بالأماكن المقدسة وعاد إلى مصر بعد الحج ، وتزوج بها من السادة الوفائية ، ولم يلق في مصر على ما يظهر ما كان يؤمل من طيب الإقامة والحفاوة والتقدير والتشجيع ، وقد عبر عن ألمه المر الوجيه في قوله :

تركت رسوم عزى في بلادى وصرت بمصر منسى الرسوم
ورضت النفس بالتجريد زهدا وقلت لها عن العلياء صومى
ولى عزم كحد السيف ماض ولكن الليالى من خصومى

ثم زار بيت المقدس سنة تسع وعشرين وألف ، وكرر منها الذهاب إلى مكة ، ووفد على طيبة سبع مرات وأملى بها دروساً عديدة ، ورحل من مصر إلى بيت المقدس في سنة ١٠٣٧ وألقى بعض الدروس في المسجد الأقصى ، ثم غادرها بعد بضعة أسابيع إلى دمشق فأعجب بها ، وأنزلته المغاربة عند قدومه إليها في مكان لا يليق به ، فأرسل إليه الشاعر الأديب أحمد بن شاهين مفتاح مدرسة الحقيقة ومع المفتاح هذه الأبيات :

كنف المقرئ شيخى مقرئ وإليه من الزمان مقرئ

كنف مثل صدره في اتساع
أى بدر قد أطلع الغرب منه
أحمد سيدى وشيخى وذخرى
لو بغير الأقدام يسمى مشوق
وعلوم كالبحر في ضمن بحر
ملأ الشرق نوره أى بدر
وسمى وذلك أشرف نقرى
جنته هائما على وجه شكرى
فأجابه المقرئ بأبيات منها :

أى نظم في حسنه حار فسكرى
طائر الصيت لابن شاهين ينهى
أحمد الممتطين ذروة مجد
حل مفتاح فضله باب وصل
وتحلى بدره صدر ذكرى
من بروض الندى له خير وكر
لعوان من المعالى وبكر
من معانى تعريفه دون نسكر
يا بديع الزمان دم فى ازديان
بالعلى وازدياد تجنيس شكر

ورافت المقرئ دمشق فاستوطنها أياما ، وأملئ صحيح البخارى فى الجامع
الأموى ، ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين إلى دمشق ما اتفق له من الخطوة
ولإقبال الناس ، وجرت بينه وبين أدبائها وعلماؤها مطارحات شتى ، وكان أكثر
أدبائها إقبالا عليه وتعظيما له الأديب أحمد بن شاهين القبرسى الأصل ، وقد تركت
فى نفسه هذه الزيارة أجمل الأثر وأبقى ، فعقد فى كتابه نفع الطيب فضلا يتعلق
بالشام وأهلها وأورد فى مدحها أشعاراً ، ومن شعره فى مدحها قوله :

محاسن الشام جللت
عن أن تقاس بمجد
لولا حمى الشرع قلنا
ولم نقف عند حد
كأنها معجزات
مقرونة بالتحلى

وتغنى بجمال دمشق ومحاسنها فى أبيات كثيرة ومقطوعات متعددة ، ثم عاد إلى
مصر من هذه الرحلة الموفقة ، وسافر إلى دمشق مرة أخرى فلقى من الإكرام
والحفاوة ما لقيه فى المرة الأولى ، ودخل مصر واستقر بها مدة يسيرة ، ثم طلق

زوجته الوفائية وأراد العودة إلى دمشق فأدركته الوفاة في سنة ١٠٤١ ودفن بمقبرة المجاورين .

وقد ذكر لنا المقرئ في المقدمة الضافية التي صدر بها كتابه القيم « فقه الطيب ، سبب تأليف هذا الكتاب ، ويتبين منها أنه خلال إقامته بدمشق كان كثيراً ما يتجاذب أخبار أعلام الأدب مع أدباء دمشق ، وكان ينجر الكلام إلى ذكر البلاد الأندلسية فيورد المقرئ بدائع بلغائها ، ويذكر من كلام وزيرها الشهير لسان الدين بن الخطيب ما تقتضيه المناسبة ، ويكشف لهم عن تصرفه في فنون البلاغة ، وقدرته الفائقة في النثر والنظم والتأليف ، فلما تكرر ذلك غير مرة على أسماعهم لهجوا بذكر لسان الدين دون غيره ، وعلق بقلوبهم ، واعترفوا ببراعته ، واستحسنوا كلامه ، وطلب منه صديقه الأديب الشاعر أحمد بن شاهين أن يتصدى للتعريف بابن الخطيب في مؤلف خاص يعرب عن أحواله وبدائعه ، وصنائه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه ، ويذكر مفاخره ومآثره وما له من النظم والنثر والمؤلفات الفائقة الرائعة التي ألفها ، وقد استهول المقرئ الإقدام على ذلك في بادئ الأمر ، وكان من أسباب إحجامه عدم توفر الكتب اللازمة للقيام بهذا العمل ، إذ كان قد خلف أكثر كتبه بالمغرب وغلبته الهموم والأحزان على خواطره ، ولكن صديقه الشاهيني لم يترك له فسخة ولا مندوحة ، ولم يقبل منه عذراً ، وكرر عليه الإلحاح حتى عزم على الاستجابة لرجائه ، والنزول على حكمه ، لما كان لهذا الصديق الوفي الحفي من مكانة في نفسه ، وقد وعده بالشرع في المطلب ومباشرة التنفيذ عند الوصول إلى القاهرة ، وخرج من دمشق إلى مصر وشرع بعد الاستقرار بها في التأليف ، وكتب نبذة من الكتاب ، وتوقف بعد ذلك عن المضى في إتمامه ، فوافته رسالة من صاحبه الشاهيني يستعجزه وعده ، ويحضه على إتمامه ، فأثر في نفسه هذا الاهتمام ، وحفزته على استئناف العمل ، ومتابعة التأليف ، وأجد نشاطه ، فجمع من مقيدات أخبار لسان الدين حتى استوفأها ، وخطر له بعد ذلك أن يذكر جانباً من أخبار الأندلس ، ومفاخرها الباسقة ، ومآثر أهلها ومزاياهم وخصائصهم ، وشجعه على ذلك أنه كان معنياً

بأخبار الأندلسيين أثناء وجوده في المغرب، وجمع طائفة كبيرة منها، ولم يستصحب معه منها سوى النزر اليسير، ومن ذلك النزر اليسير آتخف قراء العربية بهذه الموسوعة القيمة النادرة.

والظاهر أن الطريقة التي اتبعها في تأليف كتابه كانت طريقته التي يؤثرها بعد التفكير والتروية، فهو يجعل المترجم له نواة يجمع حولها الأخبار الجمة، والمعلومات المستفيضة، ويتخذها محوراً يدير حوله الموضوع ويؤلف بين شوارده ويضم متناثره، وهو يحاول أن يفهم الرجل عن طريق فهم عصره، واستقصاء معارف زمنه، والإحاطة بالظروف التاريخية التي مهدت له السبيل، واستفتحت له المخلق وقربت له البعيد، وقد جرى على هذا الأسلوب في كتابه المعروف المسمى «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض»، واتخذ من القاضي عياض نواة لحشد المعلومات الأدبية والتاريخية، ولم يكتف بأخبار عصره وعصره، بل استوعب أخبار الأجيال السابقة لجميله.

وقد قسم كتابه «نفح الطيب» قسمين، كل منهما مستقل بموضوعه، فالقسم الأول يتناول أخبار الأندلس، وفيه ثمانية أبواب، الباب الأول في وصف جزيرة الأندلس، وحسن هوائها، واعتدال مزاجها، وفور خيرها، واشتمالها على كثير من المنافع والمحسن، وذكر بعض مآثرها المجلوة الصور، وتعداد كثير مما لها من البلدان والكور، والباب الثاني في إلقاء بلاد الأندلس للمسلمين بالقياد وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد، والباب الثالث في سرد بعض ما كان للدين في الأندلس من العز والقهر للعدو وأعمال أهلها في الجهاد، والباب الرابع في ذكر قرطبة مقر الخلافة الأموية وجامعها ذى البدائع الباهرة والإشارة إلى الزهراء الناصرية والعامة، ووصف جملة من منزهات تلك الأقطار ومصانعها، والباب الخامس في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق، ومدح جماعة من أولئك الأعلام ذوى الأبواب الراجحة وذكر ما تقتضيه المناسبة من كلامهم، والباب السادس في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق والتعريف بهم، والباب السابع في نبذة مما امتاز به أهل الأندلس

من توقد الأذهان وجملة من أجوبتهم الدالة على لودعيتهم والمعيتهم ، والباب الثامن في ذكر تغلب العدو على الجزيرة بعد صرفه وجوه الكيد إليها ، وتقريقه بين ملوكها ورؤسائها بمكره حتى تم استيلاؤه عليها واستغاثة من بها بالنظم والنثر بأهل ذلك العصر من سائر الأقطار .

أما القسم الثاني فهو خاص بالتعريف بلسان الدين بن الخطيب وذكر أبنائه وما يناسبه من ذكر العلماء الذين اقتضى ذكرهم الاستطراد وشجون الحديث ، وفيه أيضا ثمانية أبواب ، فالباب الأول في ذكر أولية لسان الدين وذكر أسلافه والباب الثاني في بيان نشأته وتربيته ووزارته وسعادته ومساعدة الدهر له ثم قلبه له ظهر الحزن ، وما لقي من إحسن الحاسدين والكائدين ، وذكر قصوره وأمواله وغير ذلك من أحواله إلى وفاته ، والباب الثالث في ذكر مشايخه ، والباب الرابع في ذكر مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إليه وثناء غير واحد من أهل عصره عليه ، والباب الخامس في إيراد جملة من نثره ونظمه وما يتصل بذلك من أزجاله وموشحاته ، والباب السادس في مصنفاة في الفنون ومؤلفاته ما كل منها أو ما عاقه الموت عن إتمامه ، والباب السابع في ذكر بعض تلامذة الآخذين عنه والمقتبسين من أنواره ، والباب الثامن في ذكر أولاده المقتفين آثاره الحميدة ووصيته لهم وما يتبع ذلك من المناسبات .

وكان اسم الكتاب أولا « عرف الطيب في التعريف بالوزير بن الخطيب » . فلما ألحق به أخبار الأندلس وأفاض فيها جعل اسمه « نفس الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » .

وهذا الكتاب الحافل من خير الوثائق الأدبية ، وأنفس المصادر في تاريخ الأندلس بوجه عام ، وفيه مجموعة هائلة من المعلومات التاريخية والجغرافية والاجتماعية والأدبية منقولة من كتب مختلفة أكثرها مفقود الآن ، وهذا مما يجعل لهذا الكتاب قيمة لا تقدر ، ويضعه في طليعة المراجع الأولى لتاريخ أسبانيا

الإسلامية من أيام الفتح إلى آخر أيام استردادها ، وفي تاريخ الحقبة الأخيرة هو المرجع الوحيد .

ومؤلف نفح الطيب علاوة على صبره في الجمع وقدرته على التنسيق والتأليف شاعر مجيد قد لا يرتفع شعره إلى مستوى شعر كبار الشعراء ، ولكنه كذلك لا ينزل إلى حضيض ما يسمى بشعر العلماء المعروف بالغثاء والركاكة والجفاف والذي يبدو فيه ضعف الخيال ونضوب الإحساس ، وفي شعر المقرئ سلاسة وليونة وعذوبة ومائية ، وعليه مسحة من جمال الفن ، وهو يدل على نفس حساسة وشعور مرهف ، ويمتاز نثره بإشراق الديباجة ومثانة المبنى والقدرة على التصرف في استعمال اللفظ ، وهو أقرب في نثره إلى طريقة الأندلسيين منه إلى طريقة المشارقة ، ومكاته الأدبية لا تقوم على نفح الطيب وحده ، فؤلغاته الأخرى كثيرة متنوعة في طليعتها كتاب أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، وقد كثرت مؤلفاته وعظم إنتاجه لأن الرجل كان متعدد الجوانب دائم التحصيل ، وهو من الكتّاب القليلين الذين دانوا قراء اللغة العربية بكثرة ما كتبوا وألفوا وبذلوا من الجهد المشمر النافع .

بعض الشعراء المؤرخين

بين التاريخ والأدب علاقة أكيدة ونسب لاصق حتى قيل إن التاريخ والأدب توأمان ، وقد اشتهر كبار المؤرخين قديماً وحديثاً وفي مختلف الآداب الأيمية بقوة الأداء ، وعلو البيان ، وسخروا اللغة أداة طيعة لرواية الحوادث ، وتصوير الأشخاص ، ووصف المواقف والمشاهد ، وقد مرت فترة حدث فيها رد فعل يرمى إلى إنكار علاقة الأدب بالتاريخ ، ويحاول أن يجعل التاريخ علماً خالصاً لا شأن له بالأدب ، وكان من أكبر أسباب هذه النزعة الانتصارات الباهرة التي أحرزتها العلوم الطبيعية ، وقد أغرى ذلك فريقاً من المؤرخين بمحاولة الاستفادة من المناهج العلمية في دراسة التاريخ وكتابته وإسباغ الصفة العلمية على التاريخ في جملة ، وقد أكسب ذلك المؤرخين بعض الدقة العلمية ، والميل إلى الاحتياط في التحري ، ولكن اتضح لهم بعد ذلك أن دراسة النوع الإنساني شيء يختلف عن دراسة النباتات والحشرات أو خصائص المادة والذرات ، فكل فرد له حياته الخاصة المتميزة التي لا تستطيع أن تتخذها قانوناً لمسائر حيوات الأفراد الآخرين ، وليس في المستطاع أن تحلل حياة أى إنسان تحليلاً علمياً يستنبط منه القوانين والقواعد وتستخرج النظريات ، فالإنسان أكثر تعقيداً وتراكباً وأشد تنوعاً وأوفر روحانية من أن تستقصى تحليله الأساليب العلمية ، ومجال التاريخ هو الحدس الموفق والنظر الملهم الذى توحيه الإحاطة بالحوادث واستيعاب الروايات المختلفة ، والتاريخ يتناول القوى العقلية والبواعث الروحية والدوافع النفسية ، وهى أشياء لا يسهل إخضاعها للبحث العلمى الخالص ، لأنها لا توزن بالمعايير ، ولا نوضح فى أناييب الاختيار .

وقد أشار شوبنهاور إلى العلاقة بين الشعر والتاريخ فقال : حقيقة أن التجربة والتاريخ يعلماننا أن نعرف الإنسان ولكنهما يجعلاننا نعرف الناس ، لا الإنسان .

أى أنهما يقدمان لنا ملاحظات عن سلوك الناس يمكن أن نستخلص منها قاعدة أكثر مما يقدمان لنا لمحات عميقة عن طبيعة الإنسان الداخلية كالشعر ، على أن هذا لا يمنع أن التاريخ والتجربة في بعض الأحيان يقدمان لنا هذه اللوحات ، وعند شوبنهاور أن الشعر هو الذى يقدم للبشرية صورة صحيحة عن « فكرة الإنسان » ، وأن المؤرخ قد يستطيع ذلك إذا نظر إلى التاريخ نظرة فنية واستطاع أن ينفذ إلى الفكرة المستقرة خلف المظاهر العارضة المتقلبة ، أما كارلايل فإنه يخالف شوبنهاور في ذلك بعض المخالفة ويرى أن التاريخ هو الشعر الحقيقي كما في قوله « إن التاريخ بعد كل شيء هو الشعر الحقيقي ، والحقيقة الواقعة إذا فسرت تفسيراً صحيحاً أعظم من مبتكرات الخيال ، بل إن الشعر الحقيقي الخالص لا يكون إلا في التفسير الصحيح للحقيقة » .

فالتاريخ ليس لوناً من ألوان الأدب فحسب ، بل هو وثيق العلاقة بأسمى ضروب الأدب وهو الشعر ، وقريب الشبه به ، والواقع أن حاضرننا الثرى في كل لحظة من اللحظات يتساقط ويهوى في ليل الماضى الشعرى ، والمؤرخ الذى يستطيع أن ينشر لنا صحف الماضى المطوية لا بد أن يستمليه هذا الماضى ويثير عواطفه وشجونه ويأخذ عليه مسالك خياله وسبحات أوهامه ، أى لا بد أن يصبح شاعراً إلى حد ما ، ومن ثم ميل الشعراء إلى الثقافة التاريخية ، وحرصهم على استحضار صور الماضى واستطلاع أخباره وحوادثه ، ففي كل شاعر يكمن المؤرخ وفى كل مؤرخ يتوارى الشاعر ، والذى يقرأ كتاب تاريخ الثورة الفرنسية للمؤرخ توماس كارلايل يعجب كيف انقلب المؤرخ شاعراً ملتهب الخيال ، رائع البيان ، يعرض عليك الصور النابضة بالحياة ، والمشاهد الحافلة بالحركة ، كما أن من يقرأ رواية إيجمونت للشاعر جيتى أو رواية أنطونى وكليوباترا لشكسبير أو روايه ولنستين للشاعر شيلر كيف تحول الشاعر إلى مؤرخ يقدم لنا لباب التاريخ وجوهه ، لاقشوره الفانية ، أو تفصيلاته القليلة القيمة العديدة الجدوى .

فالشعر كثيراً ما يختلط بالتاريخ في آداب الأمم المختلفة ، وكذلك التاريخ

كثيراً ما يتزوج بالشعر ، ويتجلى ذلك في تاريخ الأدب العربي في صورة واضحة ، بل ربما كانت هناك أسباب اجتماعية وسياسية جعلت ذلك أوضح في الأدب العربي بوجه خاص ، فالكثير مما نعلمه عن حوادث عرب الجاهلية وأخبارها مستمد من الشعر ، والكثير من حوادث العصر الأموي والعصر العباسي لا نستطيع أن نقرب من تصورها وفهم حقيقتها دون الاستعانة بالشعر .

وأثر الثقافة التاريخية باد في كبار الشعراء الممثلين للأدب العربي . فالمثنبي مثلاً في القصيدة التي نظمها بمناسبة اصطلاح الأستاذ كافور والأمير أبي القاسم بعد الوحشة التي جرت بينهما يقول :

أنسنت الخلف بالشراة عداها وشفي رب فارس من إياد
وتولى بني اليزيدي بالبصرة حتى تمزقوا في البلاد
وملو كماً كأمس في القرب منا وكطسم وأختها في البعاد
ويظهر أثر ثقافة أبي تمام التاريخية في القصيدة التي عزي بها مالكا بن طوق عن أخيه القاسم بن طوق ، وهو يخاطبه قائلا :

فإن تك مفجوعاً بأبيض لم يكن يشد على جدواه عقد التأم
بفارس دعوى وهضبة وائل وكوكب عتاب وجمرة هاشم
فمن قبله ما قد أصيب نبينا أبو القاسم النور المبين بقاسم
وخبر قيس بالجلية في ابنه فلم يتغير وجه قيس بن عاصم
وقال على في التعازي لأشعث وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلى عزاء وحسبة فتؤجر أم تسلو سلو البهائم
وللطرفات يوم صفين لم يمت خفانا ولا حزناً عدى بن حاتم

ويختتم هذا العرض التاريخي بهذين البيتين الحكيمين :

خلقنا رجالاً للتصبر والآسى وهن نساء للبكا والمآثم

وهل من حكيم ضيع الصبر بعدما رأى الحسكة الصبر ضربة لازم
وثقافة أبي العلاء التاريخية تتجلى في رسالة الغفران ، وتكاد تظهر في كل
صفحة من صفحات اللزوميات وأبو العلاء هو القائل :
ما كان في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أخبارهم طرف
وفي مفاخرات الأخطل والفرزدق وجبرير كثير من الإشارات التاريخية ،
أنظر مثلاً إلى قول الفرزدق :

لولا فوارس تغلب ابنة وائل دخل العدو عليك كل مكان
ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا نارين أشرفتا على النيران
وهو في هذين البيتين يشير إلى يوم خزاز الذي انتصر فيه العدنانيون على
اليمنيين وكان كليب وائل من الأبطال البارزين في ذلك اليوم المشهور .

والتاريخ من الموضوعات التي شغلت جزءاً كبيراً في آداب اللغة العربية ،
فال مؤرخون في تاريخ الأدب العربي كثيرون ، والمؤلفات التاريخية كثيرة موفرة
برغم ضياع الكثير منها ، وقد كان من أقوى البواعث على نشأة كتابة التاريخ
عند العرب كما قدمت العناية بتفسير القرآن والحرص على تفهم معانيه ومضامينه
وأحكامه ، وقد تناول القرآن حوادث شتى من الحوادث التي كانت جارية في عهد
نزوله وفيه إشارات إلى حوادث أخرى سابقة لنزوله ومن ثم وجبت معرفة مناسبة
نزول الآيات ، وكانت الصحابة تعرف الكثير منها ولكن الأجيال التالية
كانت تجهلها ، والقرآن نفسه لا يذكرها مفصلة مستوفاة وإنما يوجز في الإشارة
إليها ويكتفي باللمحة الدالة ، وفيه كذلك إشارات إلى الأمم القديمة والداوس
المتفقه يسره أن يزيد علمه بتلك الحوادث ويلم بأطرافها ويستوعبها ، كما أن الحاجة
إلى التوسع في التشريع جعلت البحث التاريخي ضرورة من الضرورات وقد
استلزم ذلك الاجتهاد في جمع الأحاديث وتحري أخبار رواها ونقلها ، واهتمام
المسلمين بمعرفة أخبار النبي وأبطال الإسلام استلزم بذل مجهود كبير ويعزى
إليه نشوء الجغرافية وكتابة التراجم والسير .

ونرى من ذلك أن التاريخ قد نشأ إلى حد كبير باعتباره شرحاً لآيات القرآن من ناحية ومعيناً على التثبت من صحة الأحاديث وأخبار النبي من ناحية أخرى ، على أنه كان كذلك شرحاً للشعر العربي من وجوه كثيرة ، وقد كان الشعر عند العرب في جاهليتهم طريقة قبلية لتسجيل التاريخ ، والمؤرخون المتقدمون يذكرون الشعر لبيان بعض الحوادث الهامة وتوضيح ما غمض من أخبارها ، والشعر العربي بطبيعته لا يمكن الناظم من عرض المعلومات الدقيقة المفصلة في يسر وسهولة ، ويكتفى الشاعر في العادة بذكر أسماء الأمكنة والأشخاص الذين برزوا في الحوادث وأبلو فيها بلاء حسناً ، ووقفوا منها مواقف مشرفة في النضج عن القبيلة ومدافعة أعدائها ، ولذلك كان من اللازم الاستعانة بالتاريخ للاستزادة من معرفة هذه الحوادث التي يشير إليها الشعراء لإشارات سريعة موجزة ، وقد أشار زهير بن أبي سلمى في معلقته المعروفة إلى ذلك الخلاف الخطير الذي وقع بين قبيلتي عبس وذبيان ، وأدى إلى نشوب حرب بينهما ، ونوه بالسيد بن لبيد سعيه في رأب الصدع وجمع شمل القبيلتين ، وهما الحارث بن عوف وهرم بن سنان ويقال إنهما خارجة بن سنان والحارث بن عوف فقال عنهما :

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سجيل ومبرم
تداركتما عبساً وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر ملثم
ولكنها إشارات تستوجب التعليق والشرح والتفصيل لتوضيحها وجلاء غامضها ، لأن الشعر العربي — على الأقل في تلك الفترة — لم يكن يتسع لمثل هذا التفصيل ، ومعظم الأشعار التاريخية التي تشير إلى الحروب التي وقعت بين القبائل المختلفة في الجاهلية أو صدر الإسلام لا تطيل السرد ، ولا تفصل الحوادث تفصيلاً يغني عن الاعتماد على المؤرخين ، ولذلك كان لابد من الاستعانة بالتاريخ على فهم الشعر وتكوين صورة واضحة عن الحوادث التي يشير إليها .

وفي القرن الثالث الهجري ظهرت محاولة جديدة في الشعر التاريخي تحاول التفصيل والإطالة وبيان الحوادث مسلسلّة متتابعة ، وقد قام بهذه المحاولة عبد الله

ابن المعتز — الشاعر الوصافة المجيد الذى ولى الخلافة يوما وليلة — فنظم أرجوزة أسماها وكتاب سيرة الإمام ، فصل فيها أخبار الخليفة العباسى المعتضد حتى وفاته فى سنة ٢٨٩ هجرية وهو يقول فى مطلعها :

باسم الإله الملك الرحمن	ذى العز والقدرة والسلطان
الحمد لله على آلائه	أحمده والحمد من نعمائه
أبدع خلقاً لم يكن فكأننا	وأظهر الحجة والبيانا
وجعل الخاتم للنبوة	أحمد ذا الشفاعة المرجوة
الصادق المهذب المطهرا	صلى عليه ربنا فأكثرنا
مضى وأبقى لبني العباس	ميراث ملك ثابت الآساس
برغم كل حاسد يبغيه	يهدمه كأنه يبنيه
هذا كتاب سير الإمام	مهذباً من جوهر الكلام
أعنى أبا العباس خير الخلق	للك قول عالم بالحق
قام بأمر الملك لما ضاعا	وكان نبياً فى الورى مشاعا

وهو يمتضى فى القصيدة على هذا النسق مشيراً إلى كثير من الحوادث التى وقعت فى عهد المعتضد واصفاً موقفه منها ، وتصرفه حيالها ، وأسلوبه فى علاجها ،

وقد نحا نحوه أبو فراس فى قصيدته الرائية المشهورة ومطلعها :

لعل خيال العامرية زائر فيسعد مهجور ويسعد هاجر

وقد ذكر فيها أعمال أجداده ، وعدد ماثرهم ، وفاخر بمواقفهم ، ونوه ببطولتهم وكرمهم ثم عرج على سيف الدولة فدحه قائلاً :

إلا قل لسيف الدولة القرم لئننى على كل شئ غير وصفك قادر
فلا تلزمنى خطة لا أطيقها فبجذك غلاب وفضلك باهر

ولولم يكن فخرى وفخرى واحد لما سار عني بالمدايح سائر
ويذكر أفراداً آخرين من أقاربه مادحاً لهم مثنياً على شجاعتهم وإقدامهم ،
ويختتم القصيدة الطويلة التي تجاوزت مائتي بيت من الشعر بقوله :

نطقت بفضلى وامتدحت عشرين فما أنا مداح ولا أنا شاعر

والحقائق التاريخية التي أشار إليها أبو فراس في قصيدته تستلزم الرجوع إلى
المؤرخين واستشارتهم في تقدير صحتها ، فقد كان الرجل شاعراً مفاخرأ ، فمن
المحتمل إلى حد كبير أن يصنع من الحبة في أعمال أجداء قبة ، أو أن يضيف إليهم
مفاخر لا يستحقونها وينسب لهم مواقف لم يكن لهم فيها شيء من الفضل ، ومن
الطبعي أن يغفل ذكر عيوبهم ومساوئهم وأخطائهم .

ومن هذا القبيل أرجوزة ابن عبد ربه التي ذكر فيها مغازي الخليفة الأموي
الأندلسي عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر ، وقد أشرت إليها وذكرت بعض
آياتها في الفصل الذي عقده للحدث عن ابن عبد ربه ، وقد قسم القصيدة حسب
السنوات فهي على نمط الحوليات التاريخية ، وهي حافلة بمدح عبد الرحمن الناصر
ولكباره والإعجاب بمواقفه وأعماله ، وذكر الأماكن التي انتصر فيها عبد الرحمن
وأخضع أعداءه وفل شوكتهم ، وفرق جموعهم ، وتصف غزواته ونسفه
للحصون المنيعه وفرضه الشروط الشديدة على أعدائه الثائرين ، ونعمة المدح التي
الزمها ابن عبد ربه في أرجوزته تجعله بطبيعة الحال يجرى على الحقائق التاريخية
بعض الجور خشية أن يجرح شعور الخليفة أو يثير غضبه إذا تحرى الصدق
في تقرير الوقائع وتشدد في التزامه ، وذكر الوقائع على حقيقتها يقتضى الإشارة
إلى مواقف قد يسمو الخليفة ذكرها أو ذكر أعمال قد يروقه لإغفال أمرها ، فهي
مثل أرجوزة ابن المعتز وقصيدة أبي فراس لا تغني عن استشارة المراجع التاريخية
للتثبت بما ورد فيها .

وربما كانت قصيدة أبي فراس أقرب هذه القصائد الثلاث إلى الشعر وأجدرها

بأن تسمى قصيدة ، ففيها أبيات ممتازة قوية النظم بليغة الأداء ، وتمتاز أرجوزة ابن عبد ربه بالسلاسة والسهولة ، أما أرجوزة ابن المعتز فلها قبل كل شيء فضل سبق والتقدم وإحضاض الشعر العربي لهذا النوع من السرد التاريخي .

وقد سار على هذه الطريقة أديب أندلسي آخر من شعراء الذخيرة ، وهو أبو طالب عبد الجبار من أهل جزيرة شقر ، وكان يعرف بالمتني ، ويقول عنه ابن بسام^(١) : إنه أبرع أهل وقته أدباً ، وأعجبهم مذهباً ، وأكثرهم تفنناً في العلوم ، وأوسعهم ذرعاً بالإجادة في المنثور والمنظوم ، ثم يسترسل ابن بسام قائلاً : وله أرجوزة في التاريخ أغرب فيها ، وأعرب بها عن لطف محله من الفهم ، ورسوخ قدمه في مطالعة أنواع العلم ، وقد أثبتنا على طولها لاشتغال فصولها على علم جليل وباع في الخبر طويل ، ويتحدث عبد الجبار في مقدمه التي صدر بها أرجوزته قائلاً : هي في معنى ما تضمنته كتب التواريخ ، قطعت عيون زهرها ، والتقطت مكنون دررها ، واقتصرت على أقلها دون أكثرها ، بما لا يسع جهله ، وحذفت كل حديث يتغلغل ، وخبر يتسلسل إلا ما زدت حلاه رونقاً ، وبجته تالفاً ، من شأن فتح الأندلس ، وما اتصل بذلك من أخبار أملاكها الدرس إلى وقتنا هذا ، ومن وإيها من بنى أمة وغيرهم ، وذكرت من ولى الخلافة بالشرق من بنى العباس بعد المطيع إلى وقتنا هذا ، والامام الآن فيه القاسم بأمر الله ابن القادر . وقصدت إلى معنى الاستدكار به لجوامع التاريخ والأخبار ، وسلكت مذهب الاختصار ، رجاء أن تطلعني قريحتي على مغواه ، وتلشط متي إلى قرب مرماه ، وهو يقول في أولها :

يقول مهدي الوري المنتظر	ها فاسمعوا ما قلته واعتبروا
أبدأ باسم الله . في الترجيز	رب الأنام الملك العزيز
ثم بذكر المصطفى محمد	صلى عليه الله طول الأبد
والطيون آله الكرام	عليهم الصلاة والسلام

(١) الذخيرة لابن بسام القسم الأول من المجلد الثاني من صفحة ٤٠١ إلى ٤٣١ .

وقبل أن يدخل في موضوع التاريخ مبتدئاً من بدء الخليقة وذرة البرية تحدث في أرجوزته عن الاستدلال على الصانع تعالى من الصنعة ، وعن العلم والنظر ، والتفكير في الممالك ، ومن قبيل ذلك قوله :

يا من يجيل فكره للعبرة في كل موضوع له بالفكرة
أنظر إلى الموات والنبات والحيوان نظر استنبات
كيف ترى التسكرين فيها ماثلاً ينبيك أن لقواها فاعلا
يؤلف الأربعة العناصر يمنع من أضرارها التنافرا

ويمضى بعد ذلك متحدثاً عن بدء الخليقة ، ثم الأنبياء المنصوص على قصصهم في القرآن ، ويتحدث بعد ذلك عن الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من بني أمية ، ثم الدولة العباسية إلى عهد الخليفة المسترشد (من سنة ٥١٢ هجرية إلى سنة ٥٢٩) وقد كان معاصراً للناظم ، وأتبع ذلك بنظم أخبار دولة بني أمية بالأندلس حتى سقوطها ، ثم ذكر ملوك الطوائف ، وهو يقول واصفا حكمهم .

فاهملوا البلاد والعبادا وعطلوا الثغور والجهادا
واشغلت أذهانهم بالخر وبالأغاني وسماع الزمر
وزادهم في الجهل والخذلان أن ظاهروا عصابة الصليان
فاستولت الروم على البلاد واستعبدوا حرائر العباد

وقد شدد النكير على ملوك الطوائف تمهيداً لمدحه لدولة المرابطين الذين نظمت في عهدهم الأرجوزة ، وقد استهل الحديث عنها بقوله :

فإذ أراد الله نصر الدين استصرخ الناس ابن تاشفين
جاءهم كالصبح في إثر غسق مستدركا لما تبقى من رمق
وإني أبو يعقوب كالعقاب مجرد السيف عن القراب
ووصل السير إلى الزلافة وساقه ليومها ما ساقه

لله در مثلها من وقعة قامت بنصر الدين يوم الجمعة
وثل للشرك هناك عرشه لم يغن عنه يومه أذفنته

وختم الأرجوزة بذكر علي بن يوسف بن تاشفين الذي عاصره الناظم ، وهذه
الأرجوزة قوية النظم ، حسنة السرد ، تلخص حوادث التاريخ تلخيصاً لا يخلو من
نفحة الشعر ، وجمال الفن ، وتستحق أن يلتفت إليها ، ويرجع لها في
كتاب الذخيرة .

وفي قصيدة ابن عبدون التي رثى بها بني الألفس إشارات تاريخية بارعة
في أسلوب شعري مؤثر ، وأحسبها من أجمل القصائد التاريخية في الأدب العربي ،
ودواوين أكثر الشعراء تلقى ضوءاً باهرأ على تاريخ العصور التي عاشوا بها ،
وكثيراً ما نجد بها أوصافاً بارعة للمواقف السياسية والوقائع الحربية والحوادث
المعاصرة ، وقد كانت تخدم الغرض الذي تخدمه الصحافة في عصرنا الحاضر ، وقد
كان الشعراء إلى حد كبير يعبرون عن الحوادث المعاصرة ، ويصفون أثرها
في عواطف الشعب ، وليس ذلك بالغريب لأنهم ألسنته الناطقة ، وقلوبه الخافقة ،
والعلاقة بين الأدب والتاريخ بوجه عام وبين الشعر والتاريخ بوجه خاص علاقة
أكيدة لا انفصام لها ، فالأدب ينثره وشعره والتاريخ يتعاونان على تصوير الحياة ،
ووصف تجاربها ، واستخلاص عبرها ، وتفهم أسرارها . وفي أدب العصور الحديثة
بمجموعة جيدة من الشعر التاريخي البليغ الممتاز أخص منها بالذكر ما نظمته في هذا
الصدد البارودي وشوقي وحافظ وخليل مطران وأحمد محرم والعقاد .

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١
مؤرخو الطبيعة	٤
نشأة التاريخ الإسلامى والطبرى	٢٢
الطبرى أو المؤرخ المحدث	٢٩
ابن عبد ربه أو المؤرخ الأديب	٣٨
المسعودى أو المؤرخ الجغرافى	٤٩
أبو حيان التوحيدى وابن حيان الأندلسى أو المؤرخان الكتاتبان	٥٩
الإمام بن حزم أو المؤرخ المحب	٧٤
الفيتح بن خاقان أو المؤرخ الفنان	٨٣
ابن بسام أو مؤرخ الأدب	٩٤
الطرطوشى أو المؤرخ السياسى	١٠٣
عبد الواحد المراكشى وأحد مؤرخى الدول	١١٢
ياقوت الحموى أو المؤرخ الجامع	١٢٤
أبو الحسن النباهى أو المؤرخ الفقيه	١٣٢
المقرئ أو المؤرخ الذواقة	١٤١
بعض الشعراء المؤرخين	١٥٠

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

بإشراف الأستاذ عمر الرسوفى

رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

صدر منها :

- ١ — قصة الملكية فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات . تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى ، والدكتور حسن سفيان .
- ٢ — الرومانتيكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الكبرى
تأليف الدكتور محمد غنيمى هلال .
- ٣ — زرادشت : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .
- ٤ — كوفتشوس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سفيان .
- ٥ — الفكاهة فى الأدب العربى (جزآن) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى .
- ٦ — قصة الزواج والعزوبة فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى .
- ٧ — تاريخ الفكر الاقتصادى : من سلسلة الاقتصاد السياسى
تأليف الدكتور لبيب شقير .
- ٨ — بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور صوفى حسين أبو طالب .
- ٩ — ابن خلدون ، منشئ علم الاجتماع : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى .
- ١٠ — السرقات الأدبية : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور بدوى طيبانه .
- ١١ — الحريات العامة بين المذهب الفردى والمذهب الاشتراكى : من سلسلة الاقتصاد والسياسة
تأليف الأستاذ طهيمه الجرف .
- ١٢ — أبو حيان التوحيدى : (جزآن) . من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى .
- ١٣ — هوميروس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور محمد صقر خفاجة .

- ١٤ — حقوق الإنسان في الإسلام : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي
- ١٥ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الأول) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .
- ١٦ — بوذا : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .
- ١٧ — مونثكيو : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعيان .
- ١٨ — أبو حنيفة والقيم الإنسانية في مذهبه : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى .
- ١٩ — مع الصحفي المكافح : « أحمد حلمي » : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكتور أحمد أحمد بدوي .
- ٢٠ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الثاني) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .
- ٢١ — من قضايا اللغة والنحو : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ علي النجدي ناصف .
- ٢٢ — الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكتور إبراهيم أحمد العدوي .
- ٢٣ — الذوق الأدبي : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور علي محمد اليجندى .
- ٢٤ — تيتو، حياته وسياسته : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الأستاذ إبراهيم حسن حنبل .
- ٢٥ — بعض مؤرخي الإسلام : من السلسلة التاريخية
تأليف الأستاذ علي أدهم

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية بأشراف الأستاذ عمر الدسوقي رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دارالعلوم

الكتاب التالي من هذه السلسلة :

(صلاح الدين الأيوبي)

بقلم

الأستاذ هنياء الدين الرئيس

مكتبة النهضة المصرية
مكتبة الطب والنشر

مطبعة الرسالة
شارع عموده المتداول ٣ عابدين

 Bibliotheca Alexandrina



0393992